

سلمى الحفار الكزبري

الحب
بعد الخمسين



دمشق — أوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ — ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

الحب
بعد الخمسين

الطبعة الأولى
١٩٨٩

سلمى الحفّار الكزبري

الحب بعد الخمسين

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

الإهداء

إلى الرجل الذي أحبّني لدرجة الهيام،
إلى من طوّل عمري بحبه لي وأثراه
فحسبت أنني عشته دهوراً،
إلى من جعل حبّه فؤادي بصيراً
وملأ دنياي فخراً وحبورا،
إلى من علمني الصمود في وجه العواصف
وأنساني حدبُه طعم كؤوسي المرّة،
إلى من دلّني على إشراق الشمس
خلف الغيوم الداكنة، ومنعني من الانحناء
الا للخالق والأم، والطفل والشيخ والبائس،
إلى من لقّنني تقديس الحرية والعدل والواجب والكلمة،
إلى من رحل إلى عالمٍ أفضل من عالمنا وهو في كامل صحته وجماله،
ومازال ذكره عنبراً يفوح في الأجواء،
إلى أبي لطفي الحفار، طيب الله ثراه،
أهدي هذا الكتاب

سلمى

الحبّ بعد الخمسين

المقدمة

الحبّ نفحة علّوية احتار في وصفها الأدباء والفلاسفة عبر العصور، ودقّت معانيها لجلالها عن الوصف، فلا تُدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، كما قال ابن حزم الأندلسي في رائعته: «طوق الحمامة»، وما ذلك إلا لأنها علوية فحسب، تعلو عن المدارك البشرية.

الحبّ سرٌّ إلهي، ونعمةٌ يسبغها الخالق على المختارين من عباده، بل جناحٌ خفيٌّ يهبه للمحبين لكي يحلّقوا به، ويقتربوا بفضله من رحاب الملكوت! والحب سلطان صاحب جلالة لأن الله محبة، جل جلاله، ذو هيبةٍ وسلطان، كما أنه معلم عظيم، يهذّب النفوس، ويغذي العقول، ويسمو بالأرواح.

لا أريد التطرق إلى انهزام الحبّ في العصر الحديث أمام المادية البغيضة التي طغت على العديد من المجتمعات. ولا أريد التحدث عن الانحلال الخلقي المتفشي في زمننا أكثر من أي زمن مضى، والذي حرم الناس عامةً لذة الحب الحقيقي، وما يواكبه من

تعارفٍ هادىءٍ، وتآلفٍ صادق، وأشواقٍ وأحلامٍ بناءة، ونزوعٍ إلى الخير والجمال والعطاء. المجتمعات العصرية أجرمت بحق الحبّ، قلّلت من قدره، دنّست قدسيته، دفعت به إلى هاوية التبذّل، إذ أطلقت اسمه على العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، وعلى العلاقات المنحرفة بين أبناء الجنس الواحد. فلو أطلّ الحبّ الصحيح يوماً، ووقف على ما نحن فيه من تشويه لصورته، وتحريف لاسمه، وتيهٍ وضياع لأشاحَ بوجهه عنا مشفقاً علينا، مشمئزاً منا، ورحل إلى عليائه، حزيناً على ما ينتظرنا من مصير مرعب...

هجرة الحب في عصرنا الحاضر هي هجرة الرحمة والبركة، هجرة السعادة الحقة، بل هي النذير بمزيدٍ من الحقد والإجرام والتمرّغ بالأوحال!. لقد نسيت المرأة الحبّ، سواء أكانت شابةً أم كهلة، أماً أم بنتاً، لركضها الأعمى وراء المادة، باسم التحرر الذي هو في قاموسها الجديد تحقيق الذات وارضاء الشهوات. كما أن الرجل العصري نسي الحبّ، بل لم يعد في حاجةٍ إليه، لتوافر الصلات الرخيصة، فتحجرت المشاعر في قلبه، واسترسل مع شهواته، شأنه شأن المرأة، دونما تحرّجٍ أو خجل... ولا ريب في أن الخاسر الأول هو الإنسان، المرأة والرجل، الطفل والشيخ، والمجتمع برمته، إذ حين يغيض الحبّ ينضب الهناء، وينحسر النور، وتنهار القيم، فتنهار معها النفوس!. سباق مروّع للأخذ والاغتصاب، وعشق للمادة، في مختلف صورها، وما كانت المادة يوماً سوى أقوى مفتّتٍ للعواطف السامية، والنزعات الجميلة في مسيرة البشر المحدودة على الأرض.

وإذا كان الحب الحقيقي السامي قد هاجر من المجتمعات التي نسمّيها خطأً: «متحضّرة» فإنه ما زال يعمر قلوب الناس هنا

وهنالك، حمداً لله، ويبسط سلطانه عليها، فيستنبط منها أشرف المشاعر، وأنبل الأعمال. إنه كالغيث ينهمل على أرض ظامئة، فيربو فيها ربيعٌ معجزٌ، يورق ويزهر ويثمر، ينوّر ويدفء، ويتألّق جمالاً وعطاءً، وخلقاً وإبداعاً.

الحبّ سيدٌ مطلق لا يعترف بالأعمار، ولا بالحدود، له قبل العشرين من العمر وبعدها خصائص ومزايا تضفي على ألق الشباب ألقاً ساحراً، كما أنَّ له، بعد الأربعين والخمسين من العمر آثاراً ومعاني تكاد تكون أعمقَ وأبقى، لأنها تعيد للمحبّ نضرة شبابٍ ولّى، وتبعث فيه جمالاً ذوى، وتنعش قلباً أتعبته صروف الدهر، وروحاً قلما تشيخ، متعطشة دائماً وأبداً لنفحاته الزكية، وَرَوْحِهِ وريحانه!. لهذا نرى ورود الربيع أبهى تألقاً، وأقصر عمراً من ورود الخريف، التي تمتاز منها بجلالِ جمالها، وصلابة عودها قبل القطاف وبعده. وإني لأتمثل بأبياتٍ من شعر بدوي الجبل، في هذا الصدد، أجاب بها عن سؤال عن الحبّ بعد الخمسين:

أَتَسْأَلِينَ عن الخمسين مافَعَلَتْ
يبلى الشبابُ ولا تبلى سجاياهُ
في القلبِ كَنْزُ شبابٍ لا نَفَاذَ له
يُعطي ويزدادُ ما ازْدادَتْ عطاياهُ
فما انطوى واحِدٌ من زَهْوِ صَبْوَتِهِ
إلا تَفَجَّرَ أَلْفٌ في حناياهُ!
يَبْقى الشبابُ نَدِياً في شمائِلِهِ
فَلَمْ يَشِبْ قلبُهُ إن شابَ فَوْداهُ!![١]

---

(١) ديوان بدوي الجبل ــ دار العودة ــ بيروت ١٩٧٨، ص ٣٨٩.

وإذا تصورّ القارىء أنني سأروي له قصة حبٍّ مثير، عصف بكياني بعد بلوغ الخمسين، وأعادني إلى زهو الشباب ونزقه، شبيهةً بقصَصِ مشاهير العشاق في تاريخ الإنسانية، ومماثلةً لمغامراتهم العاطفية، فلسوف يخيب ظنّه. ومع ذلك فإن قصة حبي هي قصة حبٍ عميق كبير، هادىءٍ وسماويٍّ، ولد قبل بداية حرب لبنان المفجعة، وما زال ينمو ويتنضرّ سنةً في إثر سنة، يمدّني بالقوة، يبهج روحي، ويفجّر في نفسي ينابيع أملٍ وهناء.

ولا بد أن أعترف بأن الحبّ الذي سأصفه في فصول هذا الكتاب حبّ شبيه بكل حبٍّ كبير يُسعد ويشقي، ويُضحك ويبكي، ويشغل البال في بعض الأحيان لأننا بشر أقوياء ضعفاء، أدمغتنا عجيبة تأتي بالمعجزات، وقلوبنا رقيقة تستدرّ من محاجرنا العبرات. ورغبةً في مزيدٍ من التوضيح ينبغي أن أشير إلى أن هذا الحبّ الذي جمّل حياتي، حبٌّ خالٍ من الأثرةِ والغيرةِ والطيش، أي مما يفسد الصلة بين المحبين، ويحوّل هناءها إلى شقاء...

كلمة أخيرة أودّ أن أقولها في هذا الاستهلال: هي أنني لم «أقع في الحب» كما يقولون... لقد أحببت وأنا واقفة على رجليّ، في كامل وعيي، عيناي مفتوحتان، وقلبي متيّقظ، وذهني صافٍ، فرضخت لسلطان الحب راضيةً، سعيدةً، وارتفعت به لأن الحبّ ليس فخاً نقع فيه فنتحطّم، ولا بئراً نسقط فيها فنهلك... وأنا لا أدري حقاً لماذا تعارف اللغويون في بلادنا، وفي بلاد أخرى على إطلاق عبارة: «الوقوع في الحب» على المحبين؟ شيء غريب، عندما نتبصّر بمعناه، لأن الحبّ يسمو بالمحب إلى السماك الأعلى، عندما يغزو قلبه، يطهّره ويزكيه، يغذيه ويواسيه، يرفع من قدره، يهذّب طباعه، يقوّي إيمانه، ويجعله إنساناً أرق وأكرم، وأكثر لطفاً

وظرفاً. لهذا كله أقول إن الحبّ الذي نعمت به بعد بلوغ الخمسين من عمري، رفعني إلى كوكبه الرائع، فأشرفت منه على عوالم سحرية، وتلقنّت دروساً، واكتشفت كنوزاً لا يحق لي أن أضنَّ بها، مادام الحبّ عطاءً، ومادام القلم الذي بيدي وسيلة اتصالٍ بيني وبين القراء. وكل غايتي هو أن نجول سويةً في جنّة الحب، الذي نعمت به بعد الخمسين، فأنا متأكدة أن كثيرين مثلي اكتشفوا أروقتها الظليلة، وأُصْغَوْا إلى تسبيح ملائكتها، وتغريد طيورها، وهديل حمائمها. ولو كان الناس يحبُّ بعضُهم بعضاً، على اختلاف أعمارهم وأجناسهم، وبلادهم وبيئاتهم، لزال البغض والحقد والحسد من النفوس، وعمّت الغبطة، وانتشرت الرحمة في حياتهم. لو كانوا يحبون الله والحياة والطبيعة والإنسانية، لتغيّر وجه التاريخ على الأرض، وتعطّلت معامل السلاح، وخُذلت الشياطين! لو كانوا يحبون، لما انحرفت النفوس، واشتعلت الفتن والحروب، وعمّت الشرور، فحوّلت نعيم الحياة إلى جحيم، لو فقط كانوا يحبون!!.

سلمى الحفار الكزبري

عاشقة ومعشوقة

ــ العشق قدر يا حبيبتي ، ما في ذلك شك ، ولقد قُدّر لي أن أعشق في حياتي ، فلطف الله بي ، إذ جعلني أعشقكِ أنتِ ، حفيدتي الأولى ، منذ ولادتك . . .

هذا ما قالته لي جدتي لأمي في إحدى سهراتنا العائلية ، ثم روت لي قصة حبها العارم بكل تفاصيلها . كانت ، رحمها الله ، امرأةً فذةً ، ذات روح متفتحة للحب والخير والجمال ، حديثها عذب ، فكرها ثاقب ، وقلبها فيض حنان . وما زلت أذكر قولها لي ، يوم بلغتُ السابعة عشرة من العمر ، وقد جلست ترتشف القهوة وتدخن سيجارتها :

ــ إن العشق يا بنيّتي كلمة مفزعة في قاموس مجتمعنا العربي ، إنه مسموح للرجال ، ممنوع على النساء ، وإذا ما أحبت فتاة أو امرأة رجلاً في حياتها ، كانت الفضيحة الكبرى ، ولوّث العار سمعتها وأسرتها ، بل أضحى قتلها حلالاً ! والله أسأل أن ينجيك من شر العشق . . .

تحدثنا يومذاك طويلاً عن الحب بمعناه الشامل لأننا، هي وأنا، من فصيلة البشر الذين يحملون قلوباً فياضة بالعاطفة، لا تطيب لهم الحياة إلا بإغداقها على من يحبون، وما يعشقون.

وبقدر ما كانت جدتي سعيدة بحبها لي كنت أنا مولعةً بها، فخورةً بشخصيتها، أؤثر صحبتها على كل صحبة إلى أن وافتها المنيّة. ثم دارت الأيام وأصبحتُ أنا جدةً، فقُدِّر لي أن أعشق أحفادي التسعة، وأنعم بحبهم، وهم ستة ذكور وثلاث إناث، كل واحد منهم قطعة أثيرة من قلبي، ونفحة من روحي، له صلته الودية المتميزة بي، على القرب وعلى البعد. أما الحفيدة التي جعلتها محور هذا الكتاب، فلقد وُلدت قبل بداية حرب لبنان المفجعة بسنةٍ واحدة، وفي ظرفٍ خاص زاد في تعلقي بها فلازمتها بصورةٍ مستديمة تقريباً، ثم واكبت حرب لبنان صلتي الوثيقة بها. كنا نفترق ونلتقي، حسبما سيتضح في الفصول اللاحقة، ولقد كان حرياً بي أن أجعل عنوان هذه الذكريات: «حبّ وحرب وهجرة»، لكنني آثرت عِبارة: «الحبّ بعد الخمسين» لإثبات أهمية الحبّ في سن الكهولة، وللتعبير عما يخالج قلوب جداتٍ وجدود كثيرين مثلي، عشقوا أحفادهم، ونعموا بهذا العشق الصافي الجميل.

أطلّت الطفلة الرائعة عليّ قبل حدوث الفتنة في لبنان بسنة، فكانت كإشراقة الشمس بما حملت معها من نورٍ ودفءٍ وأمل. ولدت بعد مخاضٍ عسير، لأنها بكر ابنتي الكبيرة، فحضرت بداية المخاض الطويل في دار التوليد، حيث كانت ابنتي تتألم، وتستنجد بي، فأهوّن عليها الأمر، مفتعلة الهدوء. وبعد بضع ساعات قضيناها على هذه الحال، أجرت القابلة فحصاً دقيقاً عليها، وقرّرت نقلها إلى غرفة الولادة، فجلسنا في البهو، ننتظر

الفرج، وكل واحدٍ منا سارح بفكره، يلهج قلبه بالدعاء للأم بالخلاص، وللمولود بالسلامة. وعندما رنّ جرس الهاتف، وبشّرتنا القابلة بسلامة الوالدة والمولودة، درجت على الشفاه كلمات الحمدلله، واقشعّرت الأبدان لحدوث المعجزة: انبثاق روحٍ من روح، وقدوم عضو جديد في الأسرة، كامل التكوين، يتنفّس، ويفتح عينيه للوجود واهناً، مستسلماً، فيحتلُّ مكان الصدارة. ما أجمل قول الفرنسيين: «صاحب الجلالة الطفل!»

تُرى لماذا نولد بعد حربٍ شعواء، وتمزّق أحشاء؟ أوليس استهلال الوليد بالبكاء، وحتميّة قطع حبله السرّي أمراً عجيباً؟ أوليس في استقبالنا له بالفرح، وهو يبكي لحظة انفصاله عن أمه، مدعاةً للتأمل بأسرار الحياة؟ لقد علّل الأمر الشاعر ابن الرومي عندما قال:

لما تُؤْذِنُ به الدنيا من صروفِها يكونُ بكاءُ الطفلِ ساعةَ يولَدُ
وإلا فما يبكيهِ منها وإنها لأوسَعُ مما كانَ فيه، وأرْغَدُ؟

ولكننا قلما نفكر بصروف الدنيا عندما نستقبل الوليد، وبأنه يحمل معه زاداً نجهله، من الصحة والمرض، السعادة والشقاء، والنجاح والفشل. قد نسّمي هذا الزاد قدراً، وقد نسميه حظاً، لكنه النصيب المحتوم الذي يظلُّ خافياً إلى أن تكشف الأيام عنه اللثام. فلندع التأملات في أسرار الحياة، لنروي قصة الحب الكبير الذي ملك قلبي ومشاعري، لحظة رأت عيناي حفيدتي الجميلة أول مرة. لقد رأيتها بعد نحو نصف ساعة من ولادتها، حين دخل علينا الطبيب المولد بنفسه باشّاً، مهنئاً، ترافقه ممرضة تحمل المولودة الرائعة بين ذراعيها وتقول:

ـــ ما شاء الله! انظروا ما أجملها!.

نظرنا فرأيت طفلةً من زهر الياسمين بشرتها، ومن زرقة البحر عيناها، ومن سوادِ الليل أهدابها الوطفاء، ذات فم عقيقي كالبرعم، وأنف صغير جذاب، ويدين شفافتين، ممشوقتيّ الأصابع، على صغرهما. وقفنا جميعاً إجلالاً للطفولة، ودنونا منها نمجّد الخالق في خلقه، ثم حملها أبوها الشاب بارتباكٍ ظاهر، وأخذ يتأملها بفرحٍ وتعجّب، وهي هادئة صاحية، تنقل عينيها الزرقاوين الساحرتين ذات اليمين وذات الشمال، بشبه حيرةٍ واستغراب. وبعد لحظاتٍ تناولها جدّها لأبيها لكي يباركها، حسب تقاليدنا: سمّى عليها بأسماء الله الحسنى، وهلّل وكبّر، ودعا لها بالعمر الطويل والصحة والهناء. وعندما أخذتها منه كانت تحرّك يديها الرخصتين بنزق بحثاً عن الفم العقيقي الظامىء الذي اهتدت إليه بحركةٍ غريزيةٍ، وأخذت تمصّ إبهام يدها اليمنى بلذةٍ ونهم، ثم أغمضت عينيها. عندئذٍ حملتها الممرضة، وذهبت بها إلى غرفة المواليد، وهي، وإن غابت عن عينيّ، فقد استوطنت قلبي المشوق إلى الحب، واستولت على أفكاري منذ تلك اللحظة.

لقد جنح بي الخيال تلك الليلة، فتراءى لي أن النجوم الساطعة، والأشجار الحالمة، والأمواج السادرة، والسماء الرحبة تحدثني عن هذه الهدية السماوية، التي حظيت بها، لتبهج حياتي: سوف تكبر حبيبتي وتتعلم، وسوف أغرس فيها حب الله والوطن، حب الطبيعة والناس، حبّ الخير والفنون، فتصبح شابةً متألقة، بارّةً بأهلها ووطنها والمجتمع. أما ولوعي بها فكان يزداد يوماً بعد يوم، وشهراً في إثر شهر، ولا سيما عندما بدأت تغرّد للملائكة ساعة استيقاظها في الأصباح. أحسب أن الخالق كان في أبهى لحظات تجلّيه عندما كوّنها! لله ما أبدع إطلالتها وابتسامتها،

وصحوها ونومها، وجرس ضحكاتها الرنانة عندما دنت من بلوغ السنة الأولى من عمرها. كنت أشتمّ رائحة زكية كلما ضممتها إلى صدري، فإن للأطفال في سنتهم الأولى رائحة سماوية منعشة، لا يشبهها شيء من العطور، ولابدّ من أن تكون رائحة الجنة الموعودة!.

كان حبي لها يتعمّق، والصداقة بيني وبينها تتوثّق سنةً في إثر سنة، فالأطفال يدركون بفطرتهم مشاعر الآخرين نحوهم، وإن كانوا عاجزين عن التعبير عن عواطفهم بالكلام، ولكن متى كان الكلام أبلغ ترجمة للحب من النظرات الحنون، والابتسامات، والعناق والقبل؟ يكفي أنها كانت تفرح حين تراني، تركض وتتسلّق كتفيَّ، وأنها نطقت كلمة «تيتا» في الوقت ذاته الذي نطقت فيه كلمتيّ: ماما، بابا، فكيف لا تكون إشراقة الشمس في أفقي، وينبوع هنائي؟ يقولون إن ولد الولد أعزّ من الولد، فهل صحيح أن الأجداد يحبون أحفادهم أكثر مما يحبون أولادهم؟ لا أظن! إن ولد الولد عزيز جداً، ولكن الأولاد الذين خُلقوا من ضلوعنا وأصلابنا هم في الواقع أعزّ من في الوجود على قلوبنا، وألصق من فيه بأرواحنا. أحفادنا يُقبلون على حياتنا وقد اجتزنا عواصف الشباب العاطفية، وبلغنا مرحلة من العمر أكثر هدوءاً، وأنضج تفكيراً، وأوفر استيعاباً لروائع الكون طبيعةً وأطفالاً. إننا ننجب أولادنا، ونحن في أوج الشباب مأخوذين بمغريات الحياة، فنفرح بهم ونُفتن، نحبهم ونحبّ أنفسنا في صورهم، نُعنى بهم ونلاعبهم، ثم يجرفنا تيار اللهو والعمل، ويستولي على حيّزٍ كبير من اهتمامنا. إن اهتمامنا بأنفسنا وكفاحنا، ومواعيدنا، وتطلعاتنا المستقبلية، يحرمنا من الانصراف إليهم كلياً، وهذا أمر طبيعي،

ويحرمنا بالتالي من الاستمتاع بجمال الطفولة، وتمثّل معجزة الوجود فيها، وتجلّيها بأبدع صورها، مثلما نستمتع بها عندما نصبح أجداداً! ولا بدّ من الاعتراف بأننا، نحن الأجداد، نرى الجمال والذكاء والسحر صفات متجلية في أحفادنا. قد لا يكون هؤلاء الأطفال آيات في الجمال والذكاء والسحر، وقد لا يراهم الناس بهذه الروعة التي تبهرنا ولكن جُلّ ما نستطيع قوله للآخرين:

ــ انظروا إليهم بعيوننا وحواسّنا تعذروننا...

فالحب معجزة لأنه يسدل على المحبوب أثواب الجمال، وحُلل البهاء، في عين المحب، ويعميها عن العيوب، وكثيراً ما نُشفق على عشاق ميامين لسوء اختيارهم الحبيب، فننعتهم بعمى البصر والقلب، وانعدام الذوق السليم... هذا ما نفكّر به، ونحن ناسون أن الحبّ حاكم مستبدّ يسيطر على العقل والقلب معاً، ويقيس الأمور بمقاييسَ خاصةٍ به، لا تخضع للأعراف السائدة. إنه مارد ساحر لا يميّز بين قبيحٍ وجميلٍ، بين ساذجٍ وذكيٍ، بين شابٍ وكهلٍ، إنه يسطو على عقل العاشق، فيرى محاسن الخلق مجتمعةً فيمن يعشق، لهذا لا ترى الأمهات والجدات أجمل من أولادهن وأحفادهن، ولا أكثر جاذبية وسحراً...

هنالك فارق كبير بين عشق جدتي لي وقصة حبي لحفيدتي التي شُغفت بها إبان حرب لبنان، ذلك لأن جدّتي نعمت بحبها لي في ظروف زمنية مستقرة، هادئة. كانت تقيم في حيّ الصالحية بدمشق، وأنا أقيم مع أهلي في «حيّ الشاغور» فتزورهم عندما تشاء، ويزورونها معي باستمرار، وهي ناعمة البال. وعندما كبرت كانت تستضيفني في بيتها بضعة أيام، مما كان يغمر قلبينا

بالسعادة، حتى صرت أؤثر البقاء عندها على الحياة في كنف والديّ. أما حبي أنا لأحفادي، وتعلّقي بتلك الطفلة خاصةً، فقد اكتنفته الأخطار، ونما في الغربة عن الوطن، على الرغم من الفراق والحرمان، ولا ريب في أن البعد يزيد في الهيام، ويقلق البال أي قلق...

استقبلت حفيدتي الحبيبة عامها الثاني بعد اندلاع حرب لبنان بشهرين، ولم يكن أحد يحسب أنها ستستمر طويلاً، وتتطوّر إلى حرب مأساوية، تقلب حياة الناس رأساً على عقب، تشرّد العائلات، وتهجّر عدداً كبيراًمن الشباب، وتحرم أمثالي من رغد العيش بالقرب من أولادهم وأحفادهم. إنها كالإعصار المدّمر، هبّت دون سابق إنذار، وفرضت على سكان لبنان احتمال الشدائد، والتذرّع بالصبر لمغالبة صروفها، حتى يأذن الله بالفرج، وبعودة السلم إلى الربوع...

الحب والحرب

لقد فاق شغفي بحفيدتي الحبيبة حدود التصوّر. أضحى النظر إليها كل يوم، والاهتمام بها شغلي الشاغل الذي كان ينسيني الأخطار المحيقة بنا في كل لحظة. كنت أضحك للدنيا عبر ضحكاتها، وأشاركها في ألعابها وأحلامها، فتنبعث في كياني طفولتي البعيدة بمقياس الزمن، بفضل صحبتها. أذكر أنني شرعت بتعليمها النطق الصحيح، والغناء، وهي في السنة الثانية من عمرها، وأنها التقطت ما كنت ألقّنها بسرعة مذهلة. كما كنت أقصّ عليها الحكايات الملهبة للخيال فتصغي إليها مسحورة بما تسمع، وتسأل عن كل كبيرةٍ وصغيرةٍ كسائر الأطفال: تسأل فأجيبها بما يرضي فضولها، ويشحذ ملكة تفكيرها، تأمر أحياناً فأطيع أوامرها، ما دامت معقولة. لقد مشت وتكلمت في وقتٍ مبكر، وكان لشخصيتها الصغيرة حضور ذو هيبة وأهمية كبرى! أما جمالها فقد كان يتجلى، لجميع الذين يرونها، في وجهها الوضاء، وابتسامتها الساحرة، وزرقة العينين البراقتين، تحت هالة

الشعر الحريري الأسود. وأما أسعد أيام حياتي في تلك الحقبة المضطربة في بيروت، فقد كانت أيام استضافتها في بيتنا القريب من بيت والديها، لبضعة أيام. كانت أمتع الأوقات عندي ساعة تناول الفطور معها في الصباح لقوّة شهيتها وحاسة التذوّق عندها، وهل يوجد ما يلذ للجدّة أكثر من أن ترى أحد أحفادها يفرح حين يرى صحون «اللبنة والجبنة والزبدة والعسل» معدةً له، ويهلّل لرؤية الزعتر والزيت والزيتون والخبز الطازج، ثم يزدرد اللقيمات مستمتعاً بها، ويطلب منها المزيد؟. كانت حبيبتي تجلس على مقعدٍ مستطيل في المطبخ إلى جانبي، وأمامنا مائدة صغيرة نضع عليها أطباقاً صغيرةً فألقّمها الطعام، وأشاركها فيه بشهيةٍ غير اعتيادية. كل ما كنت أقدمه لها كان مقبولاً لديها ما عدا البيض. حاولت صنعه بطرقٍ متنوعة فلم أفلح. لذا لجأت إلى الحيلة فكنت أخفق البيضة جيداً، وأمزجها مع اللبن الساخن، وأضيف إليها ملعقة كاكاو صغيرة، وملعقة عسل. وأذكر أنني كنت أناديها ملكتي الجميلة حيناً، وأميرتي الصغيرة حيناً آخر، فتحسّ بهذا التكريم، على صغر سنّها، وتبتسم مزّهوةً بنفسها معتزّةً بألقابها!.

ومع الأيام اشتدّ حبها لذاتها، وحرصها على أشيائها الخاصة وألعابها، فقلت لنفسي هذا شيء طبيعي، لأن الأطفال نرجسيون في غريزتهم، مفطورن على حبِّ التملّك، غير أنها كانت تغالي في الخوف على نفسها وفي الإعجاب بها، إذ كثيراً ما كانت تقف أمام المرآة لتعتني بتمشيط شعرها، وتبدّل ثيابها التي لبستها في الصباح بثياب أخرى تنتقيها، لأنها في رأيها أليق من الأولى وأجمل... كما أن خوفها من المرض والألم والطبيب أخذ يشغل بالي

منذ اليوم الذي تعثّرت فيه بكرسيّ وهي تركض، ووقعت على الأرض: لقد صرخت وبكت واستغاثت بشكلٍ عنيف، ألقى الرعب في نفوسنا، مع أنها لم تُصب بأي أذى. وفي مرة أخرى جُرحت رجلها جرحاً سطحياً فارتسم الذعر على وجهها لمجرد رؤية نقطة دمٍ تسيل منه فكان لا بدّ من تهدئة روعها، وتقوية قلبها، لتكفّ عن البكاء، وتقتنع بأن الخطب الذي أصابها بسيط للغاية، فكيف لا يشغل البال مثل هذا الطبع، وتلك الأوهام، والحياة دروب محفوفة بالأشواك أمام فلذات أكبادنا؟.

ويوم بلغت عامها الثالث أصبح في الإمكان سرد قصص الأطفال على مسمعها، والإشادة بشجاعتهم. كانت تصغي إليها باهتمام وترفض، في وعيها الباطن، التمثّل بهم. هذا ما لحظته في طبعها، إلى جانب حرصها الشديد على أشيائها الخاصة إذ كان ممنوعاً على أي طفلٍ آخر، زائرٍ أو قريبٍ، أن يلمس لعبة من لعبها، ولا سيما دميتها الأثيرة، فانبريتُ لمكافحة حبّ التملّك، بطريقةٍ غير مباشرة، بعد أن أخفقت النصائح والأحاديث الهادئة جميعاً. إن ما جعلها تدرك أن حبّ الذات المفرط، والاستئثار بما نملك خصلتان بغيضتان، تحرمان صاحبهما من السعادة، وتنفّران منه الناس، هي حكاية الأميرة الجميلة «بدر» التي كانت تمنع أترابها من لمس ألعابها، ومن مشاركتها بالاستمتاع بها، فعزفوا عن زيارتها، وحزنت «بدر» وشقيت في حياتها، لأنها عاشت وحيدةً في قصر أبيها، ضجرةً، حزينةً، لا رفيق يسأل عنها، ولا أنيس يسامرها ويسليها، ولا أحد يحبها!.

أعطى التوجيه لحبيبتي نتيجة طيبة بعد فترةٍ وجيزة فأدركت أن السعادة تكمن في المشاركة. غالبت الأثرة في طبعها تدريجياً،

فأمست كريمة النفس، تُسرّ عندما تعطي رفيقاتها مما تحبه، وتحرص عليه، سرورها بما تأخذه، سواء أكان قطعة حلوى، أو كتاباً مصوراً، أو أقلام تلوين الخ... أضحت تلهو بدميتها الأثيرة معهن، وبدرّاجتها عن طيبة خاطر، فألفتهن وألفنها، وصارت تتخيلهن معها عندما تلهو مع ألعابها في غيابهن، وتحلم بلقائهن.

قضينا عاميّ ١٩٧٥ و١٩٧٦ في بيروت حيث كان شمل أسرتنا مجتمعاً بوجود ابني البكر نزيه وزوجه وأولاده الثلاثة، وابنتي ندى وابنتها الطفلة التي أولعت بها، وابنتي الثانية رشأ وابنها البكر. كنا في حالة قلق ورعب إذا مكثنا في بيوتنا، وإذا ما خرجنا منها بسبب اشتعال الحرب، ودويّ الرصاص في أي وقتٍ ومكان. لقد افتقدنا لذة العيش، والنوم الهانىء، فالأمان كالصحة تماماً، نعمة جلّى لا نقدّرها إلا إذا فقدناها! فكم وكم من طفل في بيروت أصيبوا بنوبات ذعر، وهم مستغرقون في النوم، بسبب قنبلة انفجرت بجوار بيوتهم، وحطمت الزجاج، ورجّت الأرض رجّاً. ليت الرجال الذين يتقاتلون ويصوّبون القذائف على الأحياء السكنية الآمنة يتذكرون أن فيها أطفالاً وشيوخاً ومرضى أبرياء، وعُزّل من السلاح، هم في الواقع أهلوهم، وجيرانهم، وأبناء وطنهم، وهم وحدهم الضحايا الحقيقيون للقتال! ولكنها حرب عمياء، بل فتنة ضارية اندلعت في كل بقعةٍ من بقاع لبنان، أضرمت نارها أحقاد ومصالح، ومطامع من خارج البلد ومن داخله، فأعشت الأبصار والبصائر، وأخذت تلتهم الأخضر واليابس. نعم إنها حرب ككل حرب، لم ترحم أحداً، أفقرت أناساً، وأغنت آخرين، يتّمت أطفالاً، وأثكلت أمهات، ورمّلت أناساً كثيرين، قتلت وشوّهت وشتّتت أُسراً يصعب إحصاء

عددها... وكنا نحن في عداد الذين تشتّت شملهم منذ بدايتها إذ غادر صهري بيروت إلى الرياض للعمل فيها، وانتقلت ابنتي والحفيدة إلى بيتنا للإقامة فيه معنا، ريثما يدعوهما للحاق به بعد أن يتسلّم عمله، ويؤمّن السكن له ولأسرته الصغيرة.

الفــراق

فراق الأحبة يفتّت القلب المشغوف ويلهب فيه الشوق، ولكننا شجعنا ابنتنا وصهرنا على الارتحال، حرصاً منا على مصلحتهما، ونجاتهما والحفيدة الحبيبة من الأخطار التي تهدّد سكان لبنان كافةً. لقد حبّذنا بُعدهم عن الأتون الذي نكتوي بناره حباً فيهم، لأن من يحب فعلاً يرضى بالحرمان من رؤية المحبوب، ما دام في بُعده عنه سلامته.

بقيت حبيبتي مقيمةً عندنا مع أمها زهاء شهرين قبل سفرهما إلى الرياض، فباتت المسؤولية كبيرة، وأضحى الخوف عليهما، ليل نهار أكبر، لأن حيّنا في «الرملة البيضاء» تعّرض إذ ذاك لحوادث عنف متتابعة من قتالٍ وخطفٍ وسرقات. كنت أدعو الله في سرّي أن يُيَسّر أمور صهرنا في الرياض، ويعجّل بسفرهما إليه، وكنت أحمده إذا ما انتهى النهار بسلام، وأكرّر الحمد له إذا ما انقضى الليل بأمان. أما «عصومة» فقد كانت تلبس مع بزوغ كل شمس حُلّةً جديدةً من الجمال والذكاء، وتضحك وتلعب رافلةً

في نعيم طفولتها العذبة. وذات صباح، والدنيا شتاء، روّعنا صراخها المفاجىء: كانت تجول وحدها في أرجاء البيت، بينما كنّا موزّعين فيه، فالجدّ كان يحلق ذقنه في الحمام، والأم كانت ترتّب غرفتها، وأنا كنت في المطبخ أهيّيء طعام الفطور. لقد استرعى انتباه الطفلة غطاءٌ مزركشٌ لإبريق الشاي الذي أعددته ووضعته على المائدة في غرفة الطعام المجاورة للمطبخ. وفي غفلةٍ عنا دنت منه، ومدّت يديها إليه لتسحبه نحوها، إشباعاً للفضول، فانسكب الشاي من الإبريق على المائدة، وعليها، وأحرقت ماؤه الكاوية صدرها! انطلق صراخها المرعب فجأةً، فاجتمعنا حولها هلعين، كل واحدٍ منا في حالةٍ مختلفة: لقد صاح الجدّ، منفعلاً، بعبارات اللوم عليّ لأنني تركتها دون مراقبة، من غير أن يعي ما يقول... وارتبكت الأم أيما ارتباك، ولكن فطنتها دفعتها إلى خلع ثياب الطفلة بسرعة للاطلاع على الحرق الذي أصابها. أما أنا فلا أدري من أين أتتني برودة الأعصاب إذ ساعدت ابنتي في نزع سترة حبيبتي الصوفية والقميص وأنا أقول في هدوء:

— لا شيء مهمّ... لا شيء يخيف، نحمد الله على أن الشاي لم ينصبّ على وجهها ورقبتها ويديها...

ثم حملت الطفلة المذعورة المتألمة، بعد أن نشّفت موضع الحروق بتؤدة، لأنني تذكرت أن الماء مضرٌّ بها، ورحت أطمئنها لتهدئة روعها، وهي لم تزل تبكي بكاءً حاداً. لقد انصبَّ الشاي الساخن على المعدة فبدا مكانها محمراً، لذا تركناه مكشوفاً، ومددناها على السرير، وقلت لها:

— اهدئي يا حبيبتي، سأحضر لك مرهماً يبرّد الحرق، ويزيل الألم فيروق كل شيء بسرعةٍ وتشفين.

تركتها مع ابنتي وجدّها وأسرعتُ إلى «مستشفى بيروت» المجاور لبيتنا أستنجد بالطبيب الذي جاء معي إلى البيت، وضمدّ الجرح، وطمأننا كثيراً إذ وجده سطحياً، ولكن أثره بقي ظاهراً بضعة أعوام. كانت الساعة التي وقع فيها الحادث تعيسة مرعبة، إذ أصابت الطفلة نوبة برد شديد، فأخذت ترتجف ارتجاف الأغصان في العاصفة. كما أنها كانت تخاف من الطبيب كلما كان يأتي لتغيير الضماد في الأيام التالية، وترفض النظر إلى مكان الحرق، وتلحّ بالسؤال عنه، والذعر بادٍ في تعابير وجهها، وجرس صوتها:

— هل سيزول الجرح يا تيتا؟ هل سيترك علامة بشعة؟.

فأطمئنها، وأؤكد لها أنه طفيف، وأحاول صرفها عن التفكير فيه. ثم ظلّت تشيح بوجهها، كلما بدّلنا ملابسها، كي لا ترى ما أصابها، فقلت لها ذات يوم:

— قوّي قلبك يا حبيبتي وانظري بنفسك، ترين أنك شفيت حمداً لله، فالجروح التي تصيب أجسامنا تندمل بعد المداواة وتشفى، مهما كانت جسيمة، وجرحك أنت صغير جداً ولن يترك أي أثر في صدرك.

هذا ما قلته لحبيبتي، وما كنت أردّده لها فاطمأنّت أخيراً، ولم تعد تفكر بالأمر، ولكنني لم أقل لها شيئاً عن جراح القلب التي قلما تندمل، وإذا ما التأمت يوماً تترك فيه ندباتٍ أزلية.. كما أن ما زاد في خوف الطفلة يوم الحادث هو ذعرنا نحن أمامها ساعة وقوعه، فلو كان الآباء يعلمون مدى الضرر الذي يلحقونه بأطفالهم عندما يصيحون ويهوّلون، حين يصاب أحدهم بأذى، لضبطوا أعصابهم، وهوّنوا الأمر عليهم!.

تركتها مع ابنتي وجدّها وأسرعتُ إلى « مستشفى بيروت » المجاور لبيتنا أستنجد بالطبيب الذي جاء معي إلى البيت ، وضمدّ الجرح ، وطمأننا كثيراً إذ وجده سطحياً ، ولكن أثره بقي ظاهراً بضعة أعوام . كانت الساعة التي وقع فيها الحادث تعيسة مرعبة ، إذ أصابت الطفلة نوبة برد شديد ، فأخذت ترتجف ارتجاف الأغصان في العاصفة . كما أنها كانت تخاف من الطبيب كلما كان يأتي لتغيير الضماد في الأيام التالية ، وترفض النظر إلى مكان الحرق ، وتلحّ بالسؤال عنه ، والذعر بادٍ في تعابير وجهها ، وجرس صوتها :

ـــ هل سيزول الجرح يا تيتا ؟ هل سيترك علامة بشعة ؟ .

فأطمئنها ، وأؤكد لها أنه طفيف ، وأحاول صرفها عن التفكير فيه . ثم ظلّت تشيح بوجهها ، كلما بدّلنا ملابسها ، كي لا ترى ما أصابها ، فقلت لها ذات يوم :

ـــ قوّي قلبك يا حبيبتي وانظري بنفسك ، ترين أنك شفيت حمداً لله ، فالجروح التي تصيب أجسامنا تندمل بعد المداواة وتشفى ، مهما كانت جسيمة ، وجرحك أنت صغير جداً ولن يترك أي أثر في صدرك .

هذا ما قلته لحبيبتي ، وما كنت أردّده لها فاطمأنّت أخيراً ، ولم تعد تفكر بالأمر ، ولكنني لم أقل لها شيئاً عن جراح القلب التي قلما تندمل ، وإذا ما التأمت يوماً تترك فيه ندباتٍ أزلية .. كما أن ما زاد في خوف الطفلة يوم الحادث هو ذعرنا نحن أمامها ساعة وقوعه ، فلو كان الآباء يعلمون مدى الضرر الذي يلحقونه بأطفالهم عندما يصيحون ويهوّلون ، حين يصاب أحدهم بأذى ، لضبطوا أعصابهم ، وهوّنوا الأمر عليهم ! .

انقضت الأيام ببطءٍ شديد ثم جاء يوم سفر حبيبتي وأمها إلى الرياض. كان موعد الطائرة التي ستقلّهما إليها في السادسة مساءً، فتوجهنا معهما إلى المطار في الرابعة حيث كانت الطريق شبه مقفرة، تعترضها ثلاثة حواجز للتفتيش، والتدقيق بالهويات. توقفنا عند كل حاجز للإجابة على الأسئلة الموجهة إلينا، واطلاع المسلحين على بطاقتيّ المسافرتين، وإعلامهم بأننا، زوجي وأنا، نرافقهما إلى المطار... اذكر أن أحدهم فاجأني بالترّحيب بعد رؤية هويتي وقال بوجهٍ باشٍ إنه شاهدني على شاشة التلفزيون عدة مرات عندما قدمت برنامجاً ثقافياً عنوانه: «آفاق عام ألفين» » من القنال ١١ »، قبل الحرب. أما المفاجأة التي كانت تنتظرنا في مطار بيروت فلم تكن سارّةً مثل الأولى لأن ابنتي تذكرت أنها نسيت في البيت حقيبةً صغيرة تتضمن مجوهراتها، وأدوات زينتها، مباشرةً بعد أن سلمت حقائبها لمكتب شركة الخطوط السعودية! سألنا عن موعد إقلاع الطائرة فوجدنا أن الوقت يسمح لنا بالرجوع إلى البيت لإحضارها لها، فتركتها مع أبيها والحبيبة، وأسرعت بالعودة إليه وحدي.. كان لا بدّ لي من تخفيف السرعة للتوقف عند الحواجز المنصوبة في طريق العودة من المطار، ولكنني أطلقت العنان لسيارتي بعد اجتيازها كلها. توقفت أمام البيت، صعدت إلى الشقة، وتناولت الحقيبة المنسيّة في غرفة النوم، وعدت بها إلى السيارة بسرعةٍ فائقة ولكنني لم أضعها في الصندوق خشية التفتيش، بل وضعتها على المقعد المجاور لي، وغطّيتها بسترة صوفية. عندئذٍ فقط تملكني رعب شديد وأنا في طريقي إلى المطار حيث كانت الشوارع مقفرة ومظلمة، وكان بوسع أي لصٍ مسلح أن يوقفني إما لسرقة السيارة، وإما للاعتداء عليّ... وأخيراً بلغت المطار قبل إقلاع الطائرة بنصف ساعة، وسلّمت الأمانة لابنتي،

وودعتها والحبيبة ثم أقفلت عائدة إلى البيت مع زوجي وقد خيّم علينا الصمت والوجوم كما كانا مخيّمين على المدينة بأسرها...

قضيت أياماً طريحة الفراش في غمرة ذلك الاضطراب، أترقّب أخبار حفيدتي وأبويها في غربتهم عنا، أفكّر بهم، أتلهّف على سماع أصواتهم عبر مكالمات تلفونية قلما كنا نحظى بها لانقطاع الأسلاك في أكثر الأحيان. كنت أتخيّل الطفلة الحبيبة تجول في بيتنا الذي صمت بعد سفرها صمت الأموات، تملأ أرجاءه حياةً وفرحاً، تزرع فيه البركة والتفاؤل والابتسام، أناديها «تيمة» فتجيب بسرعة لتلبي النداء. أما إذا ناداها أحد منا «عصمة» أو «عصومة» فلم تكن تجيب لأنها ابتدعت لنفسها اسم «تيمة» منذ أن بدأت تعي وتتكلم، وآثرته على اسمها من غير أن ندري لماذا... ولا ريب في أن شوقي إليها هو ما دفعني إلى كتابة قصيدة بالفرنسية هذة ترجمتها:

«تيمة»

في عينيكِ الساحرتين أرى
موكبَ النجوم الزرقاء،
وفي خصلاتِ شعركِ الحريري
ألمح عمق الليالي، وسرّ الأمواج.
أحسّ بيد الخالق ترتعش
في نبضاتِ قلبكِ الصغير
كأنه اضطرب، جلّ جلاله،
حين أبدعكِ بهذا الجمال!

رنات صوتكِ الملائكي أسمعها
في حفيف الأشجار وغناء السواقي،
في شدو الطيور وهمس الأوتار،
فأنسى متاعبي وآلامي.
«تيمة» يا ساحرتي الغالية،
يا صدى نفسي، يا فرحتي الكبرى،
عندما تشبّين وتقرئين شعري ستقولين:
«كانت لي جدة شاعرة، فحولتْ أحْزَانَها إلى أعياد!...»

الحرب : لعبة الأطفال المفضلة

استرددت عافيتي بعد سفر حبيبتي بنحو أسبوعين وتلقيت من الرياض رسالة مفصّلة، حملها لنا صديقٌ للأسرة، تتضمن صوراً لها، فاطمأن قلبي، ونهضت بنشاط لمتابعة أعمالي في البيت، وفي خارجه. كنت أخرج منه بحذرٍ شديد في ساعات النهار فقط، أما في المساء فكنا نمكث في بيوتنا، نتابع الأخبار من المذياع، أو من الشاشة الصغيرة، إذا لم ينقطع التيار الكهربائي. كانت الأخبار التي نسمعها مشؤومة، مأساوية: قتلٌ جماعي على الهوية هنا، وانفجار مرّوع، وحرائق وضحايا هناك، حتى إن بعض المستشفيات وسيارات الإسعاف لم تنج من الدمار. كان صفير سيارات الإسعاف، من وقت إلى آخر، في النهار وفي الليل، يشقّ عنان السماء، ويلقي الرعب في القلوب، أما الصحف اليومية فأضحت كلها نعوات، وتحليلات للأوضاع المتردّية على الصعدين الأمني والسياسي، وإنذارات بتجنّب السير على بعض الطرقات. كما أن أمثال هذه الإنذارات كانت تُذاع في الراديو

يومياً، لإرشاد المواطنين إلى الطرقات الآمنة والسالكة، لأن أكثرها في بيروت لم يعد لا آمناً، ولا سالكاً!.

صحوت ذات يوم على صوتٍ غريبٍ ضمن الدار، في حوارٍ مع زوجي. توجّهتُ إلى المدخل، فوجدت أمامي شاباً دون العشرين من العمر، طويل القامة، بديناً، أشعث الشعر، يحمل في يده كرةً عجيبة، ويتدّلى من حزامه مسدّس صغير... قال لي زوجي مشيراً إلى حزمة أوراقٍ مطبوعةٍ كان يحملها في يده:

ـــ أتى هذا الشاب ليبيعنا أعداداً من هذه الجريدة.

أدركت في الحال أنها جريدة ناطقة باسم إحدى المنظمات السياسية، من تلك المنشورات التي جرى على توزيعها شباب صغار على البيوت لإرغام السكان على شرائها. وكثيراً ما كانوا يوقفون سيارات الأجرة والسيارات الخاصة، لبيعها للناس وطلب التبرّع للمنظمات المتعددة لكي يُنفق ريعها على شراء السلاح، والقنابل، وتدريب الشبان على القتال، ودفع أجورهم... ولا أخفي أنني ارتعشت لرؤية ذلك الشاب ضمن الدار، وتوجسّت خيفةً من نظراته ومما كان في حوزته، لكنني جمعت شجاعتي ودعوته للدخول إلى غرفةِ الجلوس، وتناول القهوة معنا، ريثما أُحضر له النقود. استرعت انتباهه مكتبتي فقال:

ـــ لا شك في أن هذه الكتب الكثيرة غالية الثمن...ماذا تفعلون بها؟

أجبت بهدوء:

ـــ نقرؤها، ونعير بعضها لذوي الاختصاص من معلمين وكتاب وللأصدقاء، وأنت يا بنيّ ماذا تعمل، هل أنهيت دراستك؟.

قال :

ــ أنا أقرأ وأكتب قليلاً ، تركت المدرسة قبل سنتين ، والتحقت بالمنظمة الشعبية للدفاع عن أهلي وقضيتي .

ــ وماذا تحمل في يدك ؟ .

ــ قنبلة ألقيها على السيارات المشبوهة التي لا تقف عند حواجزنا ، وفي جيوبي قنابل أخرى مثلها ...

فقلت له وأوصالي ترتعد :

ــ إحذر على نفسك يا إبني ، وقل لي كيف أستطيع أن أساعدك ؟ إن لي إبناً شاباً مثلك ، فهل تريد ثياباً ؟ سأصنع القهوة حالاً فتفضل بالجلوس .

قدمت له القهوة وقطعة حلوى ، وأعطيته مبلغاً من المال ، ثم ودّعناه ، بعد أن رافقناه حتى باب العمارة ، وقلنا للبواب أمامه :

ــ عندما يعود هذا الشاب أخبرنا لكي نعطيه ما يلزمه .

ثم علمنا من البواب أنه دخل إلى العمارة في لحظةٍ كان بابها الخارجي مفتوحاً من غير أن يراه . كما روى لي زوجي أنه سمع قرع الجرس ، ففتح باب شقتنا في الطابق الخامس ، ظناً منه أن البواب أتى ، على عادته ، لإعطائه جريدة الصباح ، وإذ بذلك الشاب يضع قدمه في شقّ الباب ، ويدخل دون استئذان ! .

لقد حمدنا الله على ذهابه بسلام ، وبتنا ننام برعب ، ونصحو برعب ، لأن بوسعه ، ووسع أيّ مسلح في بيروت أن يقتحم بيتنا ، ويقتلنا إذا شاء ، كيف لا ، ونحن عاجزان عن الدفاع عن نفسينا ، لا سلاح عندنا ولا قوة عضلات ! .

في تلك الحقبة بالذات سمعت حواراً بين أولاد الحي الذي

نقطن فيه أذهلني وأقلقني. كنت في طريقي إلى بيتنا، فشاهدت أربعة صبية تتراوح أعمارهم بين السادسة والعاشرة، وقد أضحت لعبتهم المفضلة القتال في الساحات المجاورة لبيوتهم، والطرقات: سلاحهم عصيّ يحملونها، وتسليتهم الانقسام إلى فريقين متحاربين، الحاذق منهما هو الذي يفاجىء الثاني بالهجوم... وكيف لا يصبح القتال لعبة أطفال لبنان المفضلة، وهم أبرع مقلّدين للكبار؟ لقد فتحوا أعينهم على التناحر بين الأحزاب والطوائف، وشاهدوا، وما زالوا يشاهدون مناظره على شاشة التلفزيون، فأثارت مخيلتهم أنباؤه، وما يسمعون من تعليقات عن تطورها. تمهلتُ في سيري ذلك الصباح، فسمعت الحوار التالي بين طفلٍ وآخر، وفي إهاب كل واحد منهما رجل يتوثب لخوض المعركة، قال الأول للثاني:

ـ أرايت التلفزيون ليل أمس؟ كانت مناظر المعركة في الجبل عظيمة!.

ـ رأيتها وسمعت الأخبار، وسألت أبي عن أسباب الحرب فأسكتني، وقال أنه سيفسّرها لي في يومٍ آخر. هل تعرف أنت ما هي هذه الحرب؟.

فأجابه رفيقه الذي كان أكبر منه سناً:

ـ نعم أعرف: إنها قتال بين الأحزاب السياسية، والحزب البطل هو الذي يغلب الآخر.

ـ ولكن أخي الكبير قال لي إن الحرب هي لقتل العدوّ، فهل المتحاربون عندنا كلهم أعداء؟.

ـ وأنا سمعت من الكبار أنه لا يوجد في الحرب لا صديق ولا عدوّ، فإذا هاجمنا أولاد الحارة المجاورة يكونون أعداءنا،

وعلينا أن نحاربهم لنصدّ الهجوم، ومن يغلب يكون البطل!
أفهمت؟ ..

لقد أحزنني ما سمعت، فعدت إلى البيت مكتئبة لأن هؤلاء الأطفال الذين نشؤوا في الحرب هم من ضحاياها الأبرياء، وقد شوّهت أحلامهم، واغتالت صفاءهم، ونمّت الحقد في نفوسهم، شوّشت أفكارهم، أيقظت الحيوان الشرّير في غرائزهم ... رباه! أرفق بهم، لا تتخلّى عنهم، أعد إلى وجوههم الابتسام وإلى نفوسهم البراءة، وإلى قلوبهم ونومهم الهناءة!.

الهجـرة الأولـى

اشتدّ الحر في شهر أيار، واشتدّ معه القتال، وتوسعت رقعته فلم يوفّر منطقة في العاصمـة، ولا ضاحيـة مجاورة لها، ولا طريقاً تصلها بالضواحي والقرى القريبة منها. أضحى التنقل بين أحياء بيروت، والوصول إليها من خارجها مخاطرةً كبيرة، وكان لا بدّ لمئات من اللبنانين وغير اللبنانيين من التنقل يومياً للالتحاق بمراكز عملهم، ومنهم التاجر والموظف، والطبيب، والمعلم، والناس المضطرون لشراء حوائجهـم، أو عيـادة مرضاهـم، أو لتفقّـد أقربائهم، أو إنجاز معاملاتهم. كان الخارج من بيته يعتبر مفقوداً، والعائد إليه مولوداً، ومع ذلك كنا نخرج من بيوتنا لتسيير أمورنا المعيشـية، وزيارة أولادنـا وأصدقائنـا، ثم نعـود إليها مغمـومين، متشائمين. كانت أكوام النفايات مكدّسة في الطرقات، تعجّ بالذباب والجرذان، فتنذر بتفشي الأمراض، وكانت أكياس الرمل مرتفعة كالجدران، في هذا الحيّ أو ذاك، تسدّ المنافذ إليه، وتنبىء بنشوب معارك وشيكةٍ فيه، ناهيك عن دواليب السيارات العتقية

الملتهبة في الساحات، وعن دخانها الذي يعشي الأبصار، ويلّوث الأجواء! وكثيراً ما كنا نشاهد سيارات «جيب» تسير بسرعة جنونية، حاملةً شباناً مدجّجين بالأسلحة، يطوفون في المدينة مزهوّين بحمل «الكلاشنكوف»! وفي تلك الآونة تناهت إلينا أنباء تدمير جزء كبير من بيروت القديمة المليئة بالأبنية الأثرية، والأسواق العتيقة، ذات الطابع الشرقي الجميل.

كان الناس يقبعون في منازلهم بعد غروب الشمس، ويقضون الليالي على ضوء الشموع في أغلب الأحيان، ولم نكن نسمع سوى دويّ مدافع الهاون، ولم نكن نرى سوى وهج الحرائق، وصفير سيارات الإسعاف المرعش كالعويل. لقد أصبحت بيروت مدينة معزولة، بل سجناً كبيراً خانقاً، ولم يعد أحد يصدق وعود السياسيين بمعالجة الموقف جدياً، وإمكانية تطبيق قرارات وقف إطلاق النار بين الأحزاب المتصارعة، وقد بلغ عدد تلك القرارات خمسين قراراً في غضون ثلاثة أشهر. والأخطر من كل هذا استمرار تدفّق الأسلحة الثقيلة على لبنان من البرّ ومن البحر لإضرام النار فيه، في حين أن القناصة قابعون في بعض الأبنية لاصطياد الأبرياء! لهذا كله استعر الجحيم، فكيف لا أمرض؟ وكيف لا أتشاءم ولا أحزن؟ وهل يهنأ عيش لحرٍّ والمآسي تتفاقم من حوله، والأطفال يجوعون ويقتلون، والعائلات تُنكب وتتشرّد؟ في تلك الحقبة بدأ النزوح عن بيروت، ولا سيما نزوح عدد كبير من السوريين الذين كانوا يقيمون فيها. وفي الثلاثين من ذلك الشهر (سنة ١٩٧٦) دخلت قوات ردع عربية إلى لبنان، بدعوةٍ من حكومته لوضع حدٍّ للفتنة العشواء، ولكن بعض الأحزاب المتصارعة رفضت تدخل تلك القوات، واشتبكت معها في معارك امتدّت من الجبل إلى

الساحل، في صيدا وفي بيروت. يا لشؤم هذا الواقع: السلاح العربي يريق الدماء العربية، ونكبات تذكّر بنكبة فلسطين، والفرص سانحة أمام إسرائيل لصبّ الكاز على النار، والقضاء على لبنان الذي كان مزدهراً في جوارها، وعلى الفلسطينيين اللاجئين فيه. لقد شرعت الطائرات الإسرائيلية بقصف المخيمات، واستباحت أرض لبنان وسماءه وسواحله، والعالم بأسره ينقل الأخبار المروّعة، ويتفرّج على المأساة، كأن لبنان أساء إليه، ولم يكن ملجأً وملاذاً للجميع.

وفي الثامن من شهر حزيران انعقد اجتماع طارىء لوزراء الخارجية العرب في القاهرة فسمعنا قرارات وكلاماً ووعوداً في الإذعات، عقد عليها كثيرون آمالاً بالانفراج، ثم نجمت عنه خلافات بين الأخوة المجتمعين، وخصوماتٍ بين الدول العربية، تذكّر بعهد ملوك الطوائف في الأندلس... فلا الجامعة العربية جمعت، ولا القضية حُلّت، ولا نار لبنان انطفأت! هذا ما سمعناه وشاهدناه، وقرأنا عنه، وما قضى على الآمال، وعلى التفاؤل.

غادر إبني نزيه بيروت مع زوجه وأولاده الثلاثة إلى مسقط رأسه في شمال لبنان، ورجعت ابنتي الثانية رشأ مع زوجها وابنها الطفل إلى دمشق، بعد أن فقد زوجها مصنعه في ضاحية بيروت، وعدنا، زوجي وأنا، إليها أيضاً لقضاء الصيف بالقرب من أهلينا. توجهنا إلى دمشق بالسيارة عن طريق «عرمون» و«سوق الغرب» و«بحمدون» حتى البقاع لأن الطريق الدولية بين بيروت وشتورا التي كنا نقطعها في ساعةٍ واحدة قبل نشوب الحرب أصبحت خطرة لتمركز قوات «الكتائب» في جزء كبير منها، وفي بلدة «الجمهور والكحالة» خاصةً. إن الطريق التي سلكناها طويلة، وعرة، ومزروعة بحواجز متعددة أقام بعضها الفلسطينيون، وبعضها

الآخر الحزب الاشتراكي، ناهيك عن حواجز قوات الردع، مما كان يضطر السيارات للتوقف عند كل حاجز، والتعرض للتفتيش، وإبراز الهويات. لقد حجبت تلك الإجراءات الرؤيا عن الناس، وألقت في نفوسهم الخشية من عواقبها، ونحن مثلهم، فالفتن الطائفية هي أشرس أنواع الفتن وأخطرها، لذا توجسّنا خيفةً مما كان يدور حولنا، ويهدّد حياتنا شرّ تهديد، لأن القتال في لبنان اتخذ سمةً طائفية، بعدما كان لبنان بلد التعايش المثالي بين مختلف طوائف أبنائه ومذاهبهم.

أذكر أننا بلغنا بلدة «شتورا» في سهل البقاع، بعد حوالي ثلاث ساعات من مغادرة بيروت، فتوقّفنا فيها للاستراحة بعض الوقت، ومن ثم تابعنا الطريق إلى دمشق، فبلغناها سالمين، منهكين، تاركين الوطن الثاني الذي اخترنا العيش فيه بالقرب من أولادنا، مخلّفين فيه إبناً شاباً وأحفاداً أعزاء وأهلاً وأصدقاء، فكيف يمكن أن يهنأ لنا عيش دون الاطمئنان عليهم؟.

استقبلتنا ابنتنا الثانية وزوجها وابنها، وأمي، وأختي المقيمة بدمشق بفرحٍ كبير، كما يُستقبل الجنود العائدون من المعركة... كان أجمل ما رأيته في دمشق حفيدي «موفق» الذي تعودنا مناداته: «ميمو»، فقد اكتسب فيها الصحة التي فقدها في بيروت: تفتّح الورد في وجنتيه مجدداً، وهدأت أعصابه، واشتدت عضلات ابن السنوات الأربع، بعد أن استعاد النوم الطبيعي، ولكم خشينا عليه وعلى أحفادي الغالين، أولاد إبني: نائلة ومحمد ونبيل، وإن كانوا أكبر منه سناً، وعلى جميع الأطفال في لبنان من عواقب الهزات المتتالية فيه! كان من الصعوبة بمكان اقناعهم بأن ما يسمعون من طلقات نارية ومتفجرات شيء عابر لن يستمرّ. وكثيراً ما كنا نعمد

إلى إقفال النوافذ ليلاً في بيوتنا ، برغم اشتداد الحرّ ، ونلهيهم بسرد الحكايات قبل نومهم ، إلى أن يغلبهم النعاس ، ويغطون في النوم .

استقبلني « ميمو » بحنوّ ما أروعه ، وراح يسأل عن أولاد خاله ، وعن ابنة خالته « عصومة » التي أولع بها وأولعت به منذ بلوغها السنة الأولى من عمرها ، فأطمئنه وأعده بأننا سنجتمع بهم عما قريب ، ونفرح بلقائهم .

لقد أضحى هذا الطفل القريب مني وقتئذٍ سلواي وعزائي ، ولا سيما بعد انتقالنا من دمشق إلى « بلودان » لقضاء أشهر الصيف فيها إذ انتقل هو مع والديه إلى « الزبداني » ، القريبة منها ، للغرض ذاته . استأجرنا في بلودان شقة مفروشة صغيرة يملكها « أبو خالد » الرجل الشهم الذي كان قد تعهّد مع زوجه العناية بحديقة دارة كنا نصطاف فيها قبل الانتقال إلى بيروت للسكنى فيها سنة ١٩٧٢ . ولقد قضينا في تلك الدارة ببلودان مواسم صيف متعددة مع أولادنا ، قبل سنوات خلت ، خلّفنا فيها ذكريات عزيزة . كانت تقع على رأس الجبل ، على ارتفاع ألف وخمسمئة متر عن سطح البحر ، وتشرف على سلسلة جبال لبنان الشرقية ، وجبل الشيخ وسهل الزبداني ، ففيها شبّ أولادنا ، وتابعوا دروسهم الصيفية ، وتعلموا الاهتمام بالحديقة ، وكان لأبي خالدٍ « الجنيناتي » وأم خالد علينا وعليهم أفضال لا تنسى . انعقدت بيننا وبينهما صداقة متينة ، فرعينا معاً أشجار الفواكه المغروسة في تلك الحديقة الكبيرة ، وأحواض الزهور المتنوعة ، التي كنا نجدّدها في كل ربيع ، عقب صقيع الشتاء . أصبح أبو خالد وزوجهِ أم خالد بمثابة أعضاء في أسرتنا ، وكان لهما ثلاثة أبناء وُسماء ، أصحاء ، ولكنهم بكمٌ صمٌّ لأسباب جنينية ، تعود إلى تعاقب التزاوج بين أبناء العمومة . كانوا

لا يسمعون ولا يتكلمون ، ذكاؤهم حادّ ، وسواعدهم قوية ، والأم والأب صابران على المصيبة الجسيمة ، همّهما تعليمهم حرفاً يدوية تشغلهم ، وتكفيهم مؤونتهم في الحياة . ويوم بلغ أصغرهم عامه الرابع تمكنا من إدخاله مدرسةٍ نموذجية للصمّ والبكم في لبنان ، حيث قضى بضع سنوات ، وتخرّج منها يقرأ ويكتب ، وينطق بعض الكلمات والجمل ، بتحريك الشفاه ، كما تعلم فيها حرفة النجارة ، وبرع فيها . والمدرسة التي أتحدث عنها هي مؤسسة هولندية معروفة باسم « الأب أندرويغ » تقع فوق « الحازمية » ، إحدى ضواحي بيروت الجبلية .

كانت أم خالد الساعد الأيمن لي فيما مضى ، تعينني في إعداد الطعام ، وابتياع ما يلزم من حاجيات ، وتؤنسني في ساعات الفراغ ، كما كان أبو خالد الحارس الأمين في حضورنا ، وفي غيابنا على السواء . ومع أنهما كانا أميين ، إذ لم يتح لهما دخول مدرسة في السابق ، فقد تعلمتُ منهما معالجة الأمور بحكمةٍ وهدوء ، وفنون الزراعة ، واكتشفت فيهما خصالاً طيبة ، وضعتهما في نفسي موضع التقدير والإعجاب . أحسب أن مجاورة الطبيعة ، والعناية بالأرض ، والبعد عن المدن المكتظة بالسكان ، المشحونة بالمتاعب مما يكسب الإنسان الصبر ، وبُعد النظر ، ويقوّي إيمانه ، ويعلمه البساطة فيضفي عليه الصفاء .

الرعاية الجميلة التي لقيناها ، زوجي وأولادي وأحفادي وأنا من أبي خالد وزوجه وأبنائه في « صيف الهجرة الأولى » الذي أصفه تستحق أن تُسجل في هذا الكتاب ، كما هي مطبوعة في قلوبنا ، فليبارك الله المحبة والوفاء ، والمحبين والأوفياء . لقد أحبوا أولادنا إذ عرفوهم منذ طفولتهم ، ثم حضروا حفلات زواجهم ، أما البيت

الذي قدّموه لنا لنقضي صيف الهجرة فيه فقد بنوه في بلودان من تعب سواعدهم، وعرق جباههم. إنه بيت جميل نظيف، يقع في طابقين صغيرين، يقطنون فيهما مع ابنهم البكر المتزوج، فلما مررنا عليهم نسأل عن شقةٍ نستأجرها، قدموا لنا الطابق الأول، فسررنا باللجوء إليه بجوارهم، إذ أقاموا في الطابق الأرضي الذي تكتنفه حديقة من جهاته الثلاث. وأنا لا أغالي حين أقول بأننا شعرنا في كنفهم بأننا بين أهلٍ لنا وأصدقاء، مما أنسانا مرارة الهجرة، وخفّف عنا الكثير من همومها.

كانت رسائل ابنتنا المغتربة في الرياض تصل إلينا بسرعة، فتحمل معها أخبار الحفيدة الحبيبة، وتبشّر بقرب قدومها مع أبويها لزيارتنا. وقد علمنا بأنها تأثرت بالحرّ الشديد في الرياض، فخفّت شهيتها للطعام، ونحل عودها، وأخذت تغالي بمصّ إبهامها، وكأنها تعبّر بذلك عن اشتياقها إلينا، فتتعزّى به في غربتها... هذا ما جعل ابنتنا تسرع بالمجيء إلى بلودان، على أن يلحق بها زوجها، أملاً في أن ينعش هواء الجبل الطفلة، ويعيد السكينة إلى قلبها حناننا وقربنا منها. ولا ريب في أن الطفل يتغذى بحنان أهليه غذاءً لا يقلّ أهمية عما يتناول من طعام، غذاءً نفسياً وروحياً يمنحه رصيداً من الطمأنينة والسعادة في طفولته، ويصبح معيناً له في مغالبة صروف الحياة في شبابه وكهولته.

فرحة اللقاء

راجعت مفكرتي لسنة ١٩٧٦ فقرأت فيها ما يلي : « الأثنين في الخامس من تموز : لا نوم ولا اطمئنان قبل أن تنتهي حرب لبنان . نقل إلينا جدّا حفيدتي الحبيبة أخباراً مروّعة لدى نزوحهما من بيروت إلى بلودان أول أمس ، حيث سيقضيان معنا بضعة أيام ، ريثما يهيئان سفرهما إلى أوروبا من مطار دمشق . علمنا منهما أن التيار الكهربائي أصبح ينقطع عدة ساعات يومياً في بيروت ، وأن الرعايا الأجانب بدؤوا يرحلون عنها . واليوم صحبناهما إلى المطار لاستقبال حبيبتي وأمها ، فوصلت الطائرة السعودية ، ولم تكونا فيها . عسى أن يكون سبب التأخير خيراً ... وفي المساء اتصلنا بالرياض هاتفياً فعلمنا أن مجيئهما سيكون بعد أسبوع حتى يحصل صهرنا على إجازته ويرافقهما . » .

كانت أيام ذلك الأسبوع مشحونة بالقلق خشية أن تكون الحفيدة الغالية مريضة ، ويوم حطّت الطائرة في المطار ظهر الحادي عشر من شهر تموز تحمل إلينا الغياب ، بدت الطفلة شاحبة

اللون، رقيقة العود كغصن الريحان. لقد ثبت حدسي إذ كان سبب تأخير السفر مرضها هي، ولكن المهم أنها شفيت الآن، حمداً لله، ويا لفرحة اللقاء!.

عادت البهجة إلى قلوبنا بعودتها، وأضحى وجودها بيننا أفضل مهدّىء للأعصاب المتوترة توتر الحالة في لبنان، فأخباره تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وحربه تتأرجح بين المدّ والجزر، ولكن الأمل بالفرج ما زال معقوداً.

في حديقة أبي خالد ورود وأزهار تعوّدنا، حفيدتي وأنا، أن نتفقّدها مرتين كل يوم، فسألتها يوماً:

ــ أتحبين الورود والأزهار مثلما أحبها أنا يا حبيبتي؟.

ــ نعم يا تيتا، إنها حلوة ولطيفة.

ــ أو تعلمين أنها تتنفّس مثلنا، وتتغذّى بالماء والشمس والهواء، وتحبّ أن نتحدث إليها وأن نقّبلها؟.

فأسرعت الصغيرة تلثم الوردات وزهرات النسرين، وتشمّها. ثم تعلّمت أن تقول بعد شمّها: «الله!» تعبيراً عن إعجابها بها، وتلذّذها بأريجها. قلت لها ذات صباح، ونحن نتنزّه في الحديقة، حين توقفنا أمام شجيرة ياسمين مزروعة في حوض بجوار غرفة النوم:

ــ أترين يا «تيمة» كم هي مزدهية بقامتها الطويلة، وأغصانها الباسقة، وزهراتها الناعمة التي تعطي وتعطي بسخاء، وتعّطر غرفة نومك؟ إنها تهديك عطرها ولا تطلب شيئاً بالمقابل. إنها كريمة جداً، تحبك لأنكِ تحبينها، ولا تؤذينها بقطع أغصانها.

فدهشت حفيدتي وسألت :

ــ تحبني ؟ كيف يا تيتا ، وهي ليست مثلك ومثلي ومثل ماما وبابا ؟ ! .

فقلت لها :

ــ إنها تحسّ مثلنا تماماً ولكنها لا تتكلم ، فإذا ما رويناها ، وداعبنا أغصانها باللمس اللطيف فإنها تعبّر عن شكرها بعطائنا المزيد من زهراتها الرائعة . إلمسي هذا الغصن ، وقولي له : « صباح الخير ، أنت جميل ولطيف ، وأنا أحبك ، وسأحييك كل يوم ، وأحميك من الأذى ، ولا أدع أحداً يقطعك ، » وسوف ترين أنه سينمو ويكبر ، ويعرّش على الشباك حاملاً عشرات الزهرات البيضاء الفواحة بالعبير ! .

أعجبتها الصورة فصرنا نسلّم على شجيرة الياسمين كل يوم مرتين ، نتوقف أمامها لمحادثتها ، وهي تترعرع يوماً بعد يوم وتزداد تألقاً وعطاءً .

وذات مساء أتت أم خالد وفي يدها سوار من أزرار الياسمين التي ضمّتها بخيط أبيض رقيق ، وقدمتها لي مع فنجان القهوة ، فانبرت « تيمة » وقالت لها عاتبةً :

ــ حرام عليك قطفها وشكّها بالإبرة ... أتركيها تعيش مع أمها وأخوتها لأنها ستذبل هكذا وتموت ، ألا تحبينها ؟ .

فاستدركت الأمر ، وقلت لأم خالد التي أدهشها كلام الطفلة :

ــ شكراً يا أم خالد ، ولكن أرجوك ألا تقطعي أزرار الياسمين ، وتصنعي منها عقوداً وأساور بعد اليوم لأنها سَتَحْزَنُ على فراق أغصانها ، وتذبل وتموت ، كما قالت « تيمة » .

ومنذ ذلك اليوم عزفنا عن قطع الزهور والورود، وتلقنّا من طفلتنا الحماسة درساً لن ننساه: قطف الزهور حرام، بل دليل على أنانيتنا.

بعد انقضاء أسبوع واحد على وصول حبيبتي إلى بلودان بدأ وزنها يزداد، انفتحت شهيّتها للطعام، زال شحوب وجهها، طاب نومها، وتعلّمت أشياء جديدة، وعلمتنا ما لم نكن نعلم... وكان من جملة ما تعلّمت منها حبّ القطط! أنا لا أكره الحيوانات الأليفة، ولكني أحبها من بعيد لبعيد، ولا أطيق الاقتراب منها، ولا لمسها. ولكن «تيمة» تعشق القطط لذا فرحت كثيراً بوجود قطة بيضاء جميلة في بيت أبي خالد، كان اسمها «بيسة» فأطلقت عليها اسم: «ياسمينة». توطّدت الصداقة بينهما في غضون أيام قليلة، وأضحت «ياسمينة» ضيفة علينا مدلّلة، تثب من الشرفة إلى بيتنا عندما تسمع صوت «تيمة»، وتتسلل إلى غرفتها وتلحق بها أينما توجّهت. وكان عليّ أن أحتمل دورانها بين رجليّ، وحتى الاعتياد على لمسها، ووضع اللبن لها في وعاءٍ بالمطبخ لكي تلعقه أمام حبيبتي المسرورة، إكراماً لها... وكثيراً ما كانت تضعها على حجرها، سعيدةً بمداعبتها، والقطة مستسلمة تتمطّى بدلٍّ، وتنظر إليّ باستغراب. ولما كنت لا أطيق حملها، ولم أتشجع على احتضانها، كما كانت تفعل حبيبتي، فقد أضحت تسخر من جبني، وتحمسني قائلةً:

— إنها حلوة يا تيتا، وطيّبة، ولطيفة، لماذا أنت خائفة؟؟.

فأضحك وأجيب:

— إنها جميلة ولطيفة كما تقولين، لكنها ليست نظيفة. أحبها عن بعد، وأخشى أن «تخرمشني» إذا ما حملتها، لهذا أفضّل أن

أحملك أنت ، وأن أضعك في حجري أنتِ ، وأقص عليكِ حكايات تحبينها ، بعد رجوع « ياسمينة » إلى بيت أم خالد ! أظن أن زيارتها انتهت اليوم ، هلمّ نفتح لها الباب لتذهب ، وتعالي إلى جانبي لنلوّن هذه الرسوم التي اشتراها لك أبوكِ .

إلى أين تذهب الشمس

لا ريب في أن الأطفال مفطورون على الحب ، وأن في قلوبهم الطاهرة قابلية عظيمة له في مختلف أنواعه : حبّ الوالدين ، والناس ، والحيوانات الأليفة ، والموسيقى والطبيعة . كما أن هذه القابلية للحب تحتاج إلى التوجيه لتتنبّه وتنمو ، وما علينا ، نحن المربّين ، إلا إرشادهم إلى مواطن الجمال المتجلية في الكون والمخلوقات ، لا ستنباط مشاعر الخير والعطاء الكامنة في نفوسهم . وبقدر ما ندرّبهم على الحبّ المطلق ، بقدر ما نسعدهم في حياتهم ، ونستدرّ منهم أفضل الخصال . لقد نعمت في طفولتي بحبّ أهلي لي ، واهتمامهم بتنشئتي على حبّ كلّ جميل ، وكلّ عظيم ، وعلى هذا الحب ربّيت أولادي ، وعلى اكتناه الجمال والتمثل به في كل ما يفعلون ، فالجمال بمعناه المطلق هو جمال النفس ، والفعل ، وجمال القول ، والإيمان ، وهو أيضاً التحسس بروائع الكون والعمل على إسعاد الآخرين بالاهتمام بهم . ولما كانت حفيدتي الحبيبة قريبةً مني في سنيّ طفولتها الأولى تمكنت من غرس بذور حب الجمال

والطبيعة والناس في قلبها، وقد غمر قلبي بالحبور إستعدادها الفطري لتلقّف توجيهاتي، ولاستجلاء الجمال في كل ما يحيط بها. أذكر أنها سبقتني في الدلالة على مشهدٍ رائع تجلّى أمامنا ذات مساء، ونحن نسير معاً في طريقٍ جبلي في «بلودان»، وقت الغروب. توقّفت الطفلة عن السير فجأةً، وقالت لي مشيرةً بيدها إلى سلسلة جبال لبنان الممتدة أمامنا:

ـــ انظري يا تيتا إلى الشمس! صارت قرصاً أحمر، أكبر من القمر، فإلى أين هي ذاهبة؟ ولماذا هي حمراء الآن؟.

نظرت إلى الأفق المتورّد فشاهدت غروباً رائعاً، صبغ الجبال والهضاب المجاورة له، وحتى سهل الزبداني المنبسط من تحته، وقرية «بلودان» باللون القرمزي الشفاف. فقلت لها، والضياء يزداد توهجاً واتساعاً، قبل أن ينحسر ليحلّ محلّه الغسق:

ـــ الشمس ذاهبة عن بلادنا إلى بلاد أخرى يا تيمة، إنها كوكب في الفضاء عالٍ جداً، وكبير جداً، شكله مستدير، كما أن الأرض التي نعيش فيها كوكب آخر مستدير كالكرة تماماً، أعني «كالطابة» التي تلعبين بها. الأرض تدور حول الشمس من غير أن نشعر بدورانها لشدة ما هي كبيرة وثقيلة، كما أننا نعيش في جزءٍ صغير منها لأنها مكوّنة من بلاد كثيرة كبيرة، وبحارٍ، وجبال وصحارى وبحيرات وأنهار. وبما أن الأرض تدور، كما قلت لكِ، حول الشمس العظيمة، فالشمس لا تغيب عنها أبداً ولكنها تنوّر نصفها في كل يومٍ، أي البلاد التي تقع تحتها، ثم تغيب عن هذا النصف كل مساء لتنوّر النصف الثاني منها.

لحظت أن حبيبتي لم تستوعب هذا الشرح الذي سَمِعَتْهُ للمرة الأولى فقلت لها :

ـ تصوّري أن « الطابـة » هي الأرض ، وأن الشمعـة هي الشمس ، فإذا أشعلنا شمعة ، ووضعناها فوق « الطابة » نرى أنها تضيء نصفها المواجه لها فقط ، وأن النصف الثاني يبقى بعيداً عن ضوئها ، فيبقى مظلماً . وعندما نُحرّك « الطابة » بيدنا ببطء يتوجّه النصف الآخر من « الطابة » نحو الشمعة فيتنوّر بنورها ، ويسيطر الظلام على نصفها الأول الذي كان مواجهاً لها . هل فهمت يا « تيمة » ؟ .

فنظرت إليّ باستغراب ، وهزت برأسها يمنةً ويسرةً ، وكأنها تقول : « لم أفهم شيئاً » فأضفت قائلةً :

ـ سنقوم بتجربة عملية بعد قليل في البيت : نشعل شمعة ونفترض أنها الشمس ، ونمسك بالكرة بأيدينا ونحركها ، فترين بنفسك كيف أن الشمس لا تغيب عنها أبداً ، إنما تغيب عن نصفها لتشرق في النصف الآخر ، كل يوم وليلة .

رجعنا إلى البيت بسرعة وكان أول ما فعلته حبيبتي طرح السؤال ذاته على أبويها وجدّها ، فكرروا على مسمعها ما قلت لها ثم قمنا بتجربة الشمعة المضاءة على الكرة الكبيرة ، فأدركت الأمر ، وارتاحت نفسها لمطابقة تفسيري مع تفسيرهم ! وزيادة في الايضاح قلت لها :

ـ أتعلمين إلى أي بلادٍ ذهبت الشمس الآن ؟ لقد أشرقت في أمريكا حيث يوجد عمك ، وكما أن الليل يهبط عندنا بعد الغروب ، والحرارة تنخفض ، فإن الصباح يطلّ على تلك

البلاد البعيدة، والحرارة ترتفع، إلى أن ينتهي النهار وينتشر الليل فيها، لتظهر الشمس عندنا من جديد، غداً صباحاً.

فقالت بعد أن فكرت هنيهةً، ازداد خلالها بريق عينيها الكحلاوين:

— إذا كنا نحن ندور فالشمس يا تيتا لا تتحرك إذن، ولا تغيب لأننا نحن نتحرّك، نقترب منها ونبتعد عنها، أليس صحيحاً؟.

— هذا كلام صحيح مئة بالمئة، فإن الأرض هي التي تدور، لا الشمس، ولكننا نحن الكبار مخطئون في كلامنا حين نقول: غابت الشمس، وطلعت الشمس...

لقد أدهشتنا ملاحظتها، وكان لا بدّ من إيضاح سؤالها الثاني عن سبب تلّون الشمس والأفق وقت الغروب، فقال لها جدّها:

— الشمس يا حبيبتي لا يتغير لونها أبداً ولكن انعكاس الألوان على الأرض والجبال والبحار ساعة الغروب هو ما يظهرها متلوّنة بالأحمر، بسبب عوامل الهواء والمواد المشكّلة له لأنها تشرف علينا، أي على الأرض وقت الزوال، من زاويةٍ منحنيةٍ، فتخفّ حرارتها، وتختلط أشعتها المائلة بالهواء، وتنعكس أمامنا بالألوان الجميلة. كما أنها تبدو حمراء وتلوّن الطبيعة في الصباح الباكر عند بزوغها، للسبب ذاته.

لا أدري مدى استيعابها لهذا الشرح الطويل، لكنها أصغت إليه بانتباه، وقبل أن تنام قبلتها في سريرها وقلت لها:

— أتعلمين أن الشمس والقمر والنجوم والأرض والبحار من

صنع الله، الذي خلقها وخلقنا نحن؟ ما أعظمه يا حبيبتي، وما أجمل الدنيا والحياة! أوتحبين الله أنتِ؟.

ـ طبعاً يا تيتا! أحبه كثيراً، وأصلي قبل أن أنام كل ليلة، كما علمتني أمي: أشكره على كل شيء، وأطلب منه أن «يُخليها» لي، وأن يوفق بابا، وأن يجعلني بنتاً كبيرة و«شاطرة»، كما أطلب منه أن يعطيني أخوة لألعب معهم...

ـ بارك الله بكِ يا حبيبتي، الله يرضى عليكِ، ولكنني أريد منكِ أن تطلبي من الله أن تقف الحرب في لبنان، لنعود إليه كلنا من جديد، ولنرى البحر كل يوم، ونتنزّه على الشاطىء كما كنا نفعل سابقاً.

ـ سأطلب من الله أن تقف الحرب منذ الليلة، وفي كل ليلة، فقد اشتقت لبيتنا في بيروت، وللبحر يا تيتا...

وتذكرت حب حفيدتي الكبير للبحر، وإعجابها بسعته، وألوانه وأمواجه منذ أن أدركت الثانية من عمرها. بلغ حبها للبحر حدّ الولوع مما جعل النزهة المفضلة عندها هي التجّول على الشاطىء، فهي تفتقده في كل مكان، تحلم به، تشتاق إليه، وتتمنى أن تراه في الرياض. وفي دمشق وفي بلودان... يا حبذا، يا حبذا!.

مهمــة صعبــة

يوم وصلت الحفيدة العزيزة إلى بلودان مع والديها قال لي أبوها، بعد أن نامت وجلسنا نتسامر:

ــ سنكلفك بمهمةٍ صعبةٍ، ولا أحد غيرك يستطيع أن ينجح فيها...

قلت مستغربة:

ــ خيراً إن شاء الله، ما الخبر؟.

فقال:

ــ لقد ازداد ولع «عصومة» بمصّ إبهامها في الآونة الأخيرة، ستلحظين غداً أنها تسحبه إلى فمها عدة مراتٍ في النهار، لا وقت النوم فحسب. حاولنا ردعها عن هذه العادة المضرّة بصحتها وبأسنانها، فأخفقنا. تصوّري أننا دهنّا إصبعها بمادة الصبر مرةً، وربطناه بقطعة قماش مرة أخرى فاحتملت مرارة الصبر، وتابعت رشفه بإصرار عجيب. أما القماش فقد مزّقته بأسنانها، وحرّرت الإبهام السجين، ولم تبق لنا معها حيلة!.

فقلت له :

ـــ دعني أفكر بطريقةٍ مجدية لإقناعها، وأعتقد أن لإفراطها بمصّ إبهامها سبباً آخر، غير استمتاعها بتلك العادة، كبعض الأطفال في مثل سنها، ولعلَّ اضطرابها النفسي كان بسبب بعدها عن بيتكم في بيروت الذي ألفته، وعنا نحن، ولشعورها بالوحدة في الرياض، حيث لم تجتمع بعد بأطفالٍ في مثل عمرها لتلعب معهم وتسلو، حسبما فهمت.

تحدثنا بعد ذلك عن تأثّر الأطفال بالاغتراب وإن كانوا لا يعبرون عنه بالكلام مثلنا، وأكدت لابنتي وزوجها أن مجرّد اطمئنان الحبيبة لوجودها بقربنا، وقرب ابن خالتها، وتغيير الجوّ عليها هنا، سوف يساعدني كثيراً في النجاح بهذه المهمّة. وفي الأيام التالية لحظت أنها تفرط بمصّ إصبعها في النهار عندما ترضى، وعندما تلهو بألعابها، وعندما تضع القطة المدلّلة في حجرها، وقبل أن تأكل، وبعد أن تشبع! كما كانت لا تغفو إلا على حسيس رشفه حتى لكأنه مخدّر أدمنت عليه... أجّلت التدخل بالأمر أسبوعاً، ولحظت أنها كثيراً ما كانت تنسى وضع إصبعها في فمها في أثناء النهار لانشغالها في اللعب، أو الحديث أو التنزّه، وأن إبهام يدها اليمنى قد رقّ فعلاً وشابه احمرار خفيف لا أثر له بإبهام يدها اليسرى. عندئذٍ اهتديت إلى ما ينبغي اتباعه معها، ليقيني بأن الإقناع، لا النهي، هو أفضل وسيلة لإقلاعها عن هذه العادة السيئة. إن الأطفال معاندون في طبيعتهم، إذا قلنا لأحدهم: «أترك هذا الشيء من يدك» تراه قد تمسّك به، أو: «كفّ عن القفز» استمرّ فيه، وضاعف الجهد، أو: «إياك أن تلمس هذا الطبق»، تعمّد لمسه... إلى آخر ما هنالك من أمثلةٍ أكثر من أن تعدّ وأن

تحصى. ولما كنت أعلم بأن حبيبتي تحبّ ذاتها إلى درجة التأليه، وتحرص على جمالها حرصاً عجيباً، وتستوعب ما يُقال لها بسرعة، وتثق بي كثيراً، قلت لها ذات مساءٍ، وأنا ألبسها ثيابها، بعد خروجها من الحمام:

— ماذا جرى ليدك يا حبيبتي؟ أرني أصابعك العشر كلها.

قلت هذا الكلام مصطنعةً الدهشة، فبسطت الطفلة يديها أمامي وحمّلقت في وجهي باستغراب، فأضفتُ، وقد قطّبتُ حاجبيَّ، وأشرت إلى إبهام يدها اليمنى:

— ألا ترين مثلي أن إبهام هذه الإصبع مريضة؟ هل تؤلمك؟ إنها محمرّة ومشوّهة!! قولي لي ماذا جرى لها؟ فأنت لا تخفين شيئاً عليّ، أليس كذلك؟.

أذهلها ما قلت، وبحركةٍ عفوية وضعت إبهاميّ يديها جنباً إلى جنب ونظرت إليهما بعينيها الكبيرتين، وكأن المفاجأة عكّرت صفاء زرقتهما إذ بدتا مضطربتين، وكأنهما بحر هائج. عندئذٍ انتهزت فرصة الصدمة وقلت لها:

— لا بدّ من مداواة إصبعك إذا كنت تحرصين على جمال يديك. انظري جيداً كم هي نحيلة وحمراء، فأنت جميلة وستصبحين فتاة كل ما فيها جميل إلا يدها اليمنى، إذا لم نداوِ هذه الإصبع المريضة. فهل لدغتها نحلة؟.

كان أول ردّ فعل أن سحبت الطفلة يدها الممدودة، وأطبقت أصابعها على كفّها وقالت لي:

— لا يا تيتا لم يقرصها شيء ولكني أمصّها في الليل.

فتبسمت وضممتها إلى صدري وأنا أقول:

ـــ الحمد لله! لقد أرحتني وطمأنتني، فلا تخافي، المسألة بسيطة! لقد أصبحت شابةً صغيرة ينبغي أن تخافي على إصبعك من التشويه، وأن تتركيها تصحّ وتنمو، وما ذلك إلا بالكفّ عن مصّها كالأطفال الصغار. أليس حراماً أن تأكليها؟ هل هي تفاحة أو موزة؟ أو قطعة شوكولاة؟.

ضحكت حبيبتي لهذا التشبيه، فأضفت قائلةً:

ـــ إسمعي يا «تيمة»: إن إصبعك ستشفى وتعود جميلة كما كانت إذا وعدتني بأن تنامي دون تعذيبها بمصّها. أتركيها واعلمي أن جمال اليدين والأصابع مهمّ جداً لكل إنسان، مثل جمال الوجه والشعر والجسم كله. أنا لا أريد أن يقول الناس عنك: «إن «تيمة» بنت جميلة، ولكن يدها اليمنى بشعة!...».

لقد ضربت على الوتر الحساس فيما قلت لأنها أخذت تقارن بين إبهاميّ يديها، بعد أن فرغت من مساعدتها في ارتداء ملابسها الليلية. كما أنني لم أكن مغالية عندما حدثتها عن أهمية جمال اليدين، فاليدان للإنسان، رجلاً كان أو امرأة، مفيدتان له كالجناحين للطير، لهما أهمية كبيرة في حياته، ومن واجبنا أن نحافظ على جمالهما ونظافتهما. كما أنهما ينبوعا خيرٍ في قدرتهما على العطاء والبناء والإبداع، مثلما هما أداة شرٍّ إذا ما سخّرهما الإنسان المنحرف للضرب والهدم، والتشويه والإجرام! لقد سرحت مع أفكاري في موضوع اليدين، وتذكّرت قول أبي لي، رحمه الله، حين شدّ انتباهي لاكتشاف شخصيات الناس لدى مصافحتهم، لاعتقاده بأن أسلوب المصافحة كثيراً ما يعبرّ عن الطباع.

ناديت ابنتي قبل أن أغادر غرفة نوم حفيدتي، وطلبت منها

أن تُحضر لي طلاء الأظافر الفضّي، فأدركت أنني على وشك النجاح في مهمّتي. أحضرت لي زجاجة الطلاء فقلت لها:

ــ سأدهن أظافر «تيمة» به، لأنها أضحت فتاةً واعيةً، أريد أن تبدو أظافرها كاللؤلؤ البراق.

وهكذا انتهى الموضوع، وكففنا عن التحدث فيه. وعندما تمدّدت حبيبتي في فراشها لتنام، قبلتها فقبلتني، وقالت لي بكثيرٍ من الجدّ:

ــ سأضع يدي تحت المخدّة يا تيتا، هكذا، حتى لا أمصّها الليلة...

فقلت لها:

ــ وسترين بنفسك كيف ستصبح جميلة جداً عما قريب. تصبحين على خير!.

لا شك في أن الطفلة الغالية أرقت في تلك الليلة، وتعذّبت قبل أن تغفو، ولكنها أثبتت لنا أنها قوية الإرادة. لقد دخلنا إلى غرفتها، أمها وأنا، بعد حوالي نصف ساعة، فوجدناها مستغرقةً في النوم، ويداها قابضتان على المخدّة بشدة، ومنذ تلك الليلة أقلعت عن مصّ إصبعها نهائياً.

الحب والشيخوخة

ظهر ميل حبيبتي للموسيقى، وتذوّقها لبعض الألحان والأغاني الخفيفة، إلى جانب ميلها للكتب المصوّرة، والرسم، وحبّها للزهور والقطط. سررت كثيراً بحبّها للموسيقى، لما لها من أثرٍ كبير في تنمية الذوق، وتهذيب الطبع، وتغذية الفكر والروح. أضحينا نتعمّد إسماعها بعض الأغاني العربية، والألحان الغربية الكلاسيكية الخفيفة، لموزار، وشتراوس، فكانت ساعة الإصغاء إليها معها متعة كبيرة لنا جميعاً. ثم تعلمت أغنيات فيروز الخفيفة، فكانت تغنيها على أصولها، من غير نشازٍ في اللحن، وقد تذكرت كيف كنت أعزف لها على البيانو أناشيد الأطفال، حينما كنا في بيروت. لقد طلبت من أمها أن تعلّمها العزف على البيانو، بعد رجوعها إلى الرياض، وعندما رحبّنا برغبتها في تعلّم العزف، وجدت الفرصة متاحة لأقول لها:

— ها قد انقضى شهر على توقّفك عن مصّ إصبعك يا تيمة، وزال الاحمرار عنها، وبدأت تستعيد شكلها الطبيعي،

فلا مانع إذن من أن تصبحي عازفة بيانو ، لها يدان جميلتان ، وأصابع ممشوقة جميلة ، لا عيب فيها ولا تشويه !.

فابتسمت وتباهت بانتصارها على عادةٍ سيئةٍ ، ومن حقها أن تتباهى ! ولا أنكر أنني غبطتها على قوة إرادتها ، ولمت نفسي على ضعفي أمام عادة التدخين السيئة ، وعجزي عن التخلّص منها ... فلقد أحرجتني حبيبتي التي كانت تتضايق من دخان السجائر ، ورائحتها ، إذ قالت لي :

ــ لماذا التدخين يا تيتا ؟ وماذا تجدين أنتِ وماما في السجائر ؟ هل هي تفاحٌ ، أو موز ؟ أو شوكولاة ؟ ...

تحيّرت ولم أدر بم أجيب ، ولما كان لا بدّ من الإجابة قلت لها :

ــ الحق معك يا حبيبتي لأن التدخين عادة مضرّة ، وهو بلا طعم ولا فائدة ، لذا سأتوقّف عنه قريباً إن شاء الله ، كما توقفتِ أنت عن مصّ إصبعك ...

لقد أفحمتني هذه الطفلة فغيّرت الموضوع ، واقترحت عليها أن نقوم بمسابقة في الركض مع ابن خالتها « ميمو » ، الذي كان قد وصل لقضاء النهار معنا .

كان بينها وبينه صداقة قديمة عميقة ، تنمو وتتوطد عاماً في إثر عام ، ولكن تلهّفها على رؤيته ، وسماع أخباره ، ومسايرتها إياه في اللعب كانا يفوقان اهتمامه بها ، مع أنه كان يحبها كثيراً . كان يعاكسها أحياناً ، عندما يلتقيان ، لأن لكل واحدٍ منهما طبيعة مختلفة ، وأسلوباً مختلفاً في التعبير عن عاطفته نحو الآخر : لقد اتسمت معاملة حبيبتي لإبن خالتها بالرقة المتناهية ، والحدب

الجميل، كما اتسمت معاملته إياها بالمسايرة حيناً، والمشاكسة حيناً آخر. كان هو الآمر الناهي في تصرّفه، لأنه أكبر منها سناً، ولأنه فرخ رجلٍ مفطورٍ على حبّ السيطرة، وحريصٍ على أن يكون متبوعاً لا تابعاً...

كنا نتابع الألفة البريئة بين هذين الطفلين بكثير من الغبطة، فما أجمل عالم الأطفال، وما أروع ألفتهم وصداقتهم، وصحبتهم حين يلعبون معاً، ويحلمون معاً، وحتى حين يتخاصمون، وحين يتصالحون! وهل يوجد شيء أكثر عذوبةً من مراقبتهم، والدخول إلى عالمهم، حيث الصفاء والبراءة؟ وهل يوجد أمتع للنفس من مشاهدة تكوين شخصياتهم الغنية بالوعود؟ فكم وكم من موهبةٍ فنيةٍ أو علمية تتكشّف لنا في طفولتهم ينبغي أن ننمّيها، وكم وكم من شائبةٍ ينبغي أن نكافحها! قلوبهم عامرة بالحبّ، نفوسهم وديعة كالأرض الطيبة، مستعّدة لتلقّي ما نغرس فيها من بذور. إنهم أمانة جليلة في أعناقنا، فما أعظم الأمانة، وما أكبر المسؤولية!.

شرعنا بمباراة الركض في فسحة الحديقة، فخطر لي أن أتعمّد التلكّؤ في العدو لأدخل السرور على حفيديّ الغاليين، ولكنهما سرعان ما شعرا بالخدعة واحتجّا عليها بشدة، فركضت معهما، من موضع عيّناه إلى موضع آخر عشر مرات متتاليات، وسبقتهما في كل مرة، ولكن أنفاسي كادت تنقطع... وإذ بحبيبتي تطلب المزيد من التسابق، وقد تورّدت وجنتاها، وأخذ منها الحماس مأخذه، فقلت لها:

— لا أقدر على الاستمرار في الركض معكما لأني تعبت، وصرت ألهث، سأكون الحكم بينكما، هيا!.

أصرّت مجدداً فقلت لها :

ــ أنا لست صغيرة مثلك ومثل ابن خالتك ، أنا عجوز بالقياس إليكما .

فاكتأبت حبيبتي وقالت :

ــ لا يا تيتا لَسْتِ « ختيارة ! » .

فضحكتُ من كل جوارحي وقلت لها :

ــ إنني أمزح معك فلا تقلقي ، أنا لست « ختيارة » أبداً ، والدليل هو أنني سبقتكما ، ولكني أريد أن أستريح .

فكّرت في سبب احتجاجها على كلمة « عجوز » فأدركت أنها خافت عليّ من أن أموت لأنها سمعت من الكبار أن الإنسان يقترب من الموت عندما يصبح عجوزاً . كما أن الأطفال ، أكثر الأطفال ، يكرهون العجائز ، ويشمئزون منهن ، ويخشونهن نتيجة ما يسمعون من قصص خياليةٍ تصف « الساحرة » و« الجنيّة » بصورة عجوزٍ قبيحة شمطاء ... لهذا السبب عقدت النية على ألا أشيخ ، وألا أصبح عجوزاً بشعة ، إذا تقدّمت بي السنّ ، إكراماً لحفيدتي الحبيبة ! سأحافظ على همّة الشباب ، بفضل حبي لها وللحياة والفكر والفن ، فإن الحب الذي أحمله نبع حيويةٍ وأملٍ و« فيتامينات » لا ينضب !! كلا ! لن أصبح عجوزاً لأني سأبقى عاشقةً إلى آخر لحظةٍ في حياتي ! فإذا كانت الشيخوخة « عجزاً » فإن الحب قوةً ، وما دام الحب سيبقى معششاً في قلبي وروحي وفكري ، فكيف يمكن أن يصيبني العجز والوهن؟ إني أوقن بأن الإنسان ذا القلب العامر بالحب لايمكن أن تُظلم الدنيا في عينيه ، وتسودّ أمانيه ، كما أؤمن بأن الإنسان الذي يحب ، ويشعر بأنَّ له

حبيباً يودّه، يسأل عنه، يشتاق إليه، يخاف عليه، ويحنّ إلى رؤيته، يظل سعيداً مهما تقدّمت به السنّ، ويرى كل شيءٍ جميلاً.

ألا رحم الله إيليا أبو ماضي الذي قال:

أيّهـــا ذا الشاكـــي ومـــا بك داءٌ
كُنْ جميـــلاً ترى الوجـــودَ جميـــلاً!

وأحسب أن الشاعر أراد بالجمال «الحب» لأنه ليس أجمل من الحبّ في الوجود، وكل من يحبّ جميلٌ وخيّرٌ ومعطاء، فكيف لا يكون المحبّ جميلاً، وكيف لا يكون الحب هو الجمال؟.

الياسمين والنخيل

تعوّدت حبيبتي أن تتسلّل في فراشي عند صحوها من النوم، ويا لحلاوة تلك الأصباح! فإذا ما وجدتني مستغرقةً في النوم كانت تتمّدد إلى جانبي بهدوء، منتظرةً أن أفتح عينيّ فتبتسم وتقول:

ـــ صباح الخير يا تيتا!.

فأبتسم للدنيا عبر ابتسامتها المشرقة، وأمجّد الخالق في رؤيتها، وفي تفنّنها بتحية الصباح إذ كان آخر ما ابتكرته بعد حديثنا عن أغصان الياسمين المعرّشة على نافذة غرفة النوم قولها:

ـــ صباح الياسمين!.

لقد ذكّرتني يومذاك بقول مسجوع كانت جدّتي لأمي ترتّله لي في طفولتي، ومن ثم لأولادي، فرُحتُ أردّده على مسمعها وهذا نصّه:

يا صباح الخير بَكُّرْ، ويا حلاوة بْسُكَّرْ،
جاريتكْ سْعيدِةْ، وعَبْدِكْ اسكندر!

يا صباح الخير كان ، وما يِخْلى مِنّكْ مكان ،
الصمادي والعمادي يخدموك بهالزمان !
يا صباخْ ويا رَباخْ ، ويا خدودْ مِثْلِ التفاحْ ،
ويا طَلْعَةْ ملوكِيةْ ، لكن الأَصْلْ فلاّحْ !!

أذكر أنها أحبت هذه « القرادية » وأخذت تسأل عن معانيها ففسّرتها لها قائلةً بأنها أنشودة خاصة بالأطفال « الحلوين » مثلها ، لأنهم يُشبهون الملوك والأمراء ، فسألت :

— وما معنى « الصمادي » و« العمادي » ؟ .

فأجبتها :

— إنهما عائلتان في دمشق غنيّتان جداً ، فأتمنى يا حبيبتي أن تصبحي ذات شخصية كبيرة ، ليتسابق أكابر الناس على خدمتك بسرور ...

وفي الفراش كنا نقوم بحركاتٍ رياضية تسرّها وتضحكها ، فيصحو أهل البيت على رنين ضحكاتها الجميلة ، ولا سيما عندما كنت أستلقي على ظهري ، وأضعها على ساقيّ ، ثم أمسك بيديها ، وأؤرجحها صعوداً وهبوطاً عدة مرات ، ثم ألقي بها على الفراش إلى جانبي .

كثيراً ما كنا نصحبها إلى دمشق لزيارة أمي ، وبعض الأقارب والأصدقاء ، أو للتنزّه معها في الحدائق العامة ، وفي الغوطة ، فتتصرّف بلباقةٍ في كل مكان . لقد أعجبها شارع « أبو رمانة » كثيراً ، لا لأنه شارع عريض ، بل لأن أشجار النخيل المتناسقة تفصل بين خطّيه ، ولأنها كانت مضاءة بمصابيح خضراء في الليل ، تضفي عليها نوراً جميلاً ، يشعّ بين أغصانها الوارفة

الشبيهة بالمراوح. وعندما كبرت حبيبتي ظلّت ذكرى تجوّلها في هذا الشارع، ومشهد نخلاته الباسقات، الرمز الوحيد لمدينة دمشق في مخيّلتها، أما معالم المدينة الأثرية، وأسواقها القديمة التي صحبتها لزيارتها في السنوات اللاحقة فقد أعجبتها أيضاً، ولكن نخلات شارع «أبو رمانة» المنّورة بقيت أجمل شيء بدمشق في رأيها! إن من الناس من يحبون السكنى في المدن الكبيرة، ومنهم من يفضلون الأرياف عليها، حباً بالطبيعة، وأظن أن هوى حبيبتي للطبيعة منذ صغرها، الذي كان يتجلى لنا عاماً في إثر عام، ربما يسوقها لدراسة علومها، أو للإنضمام إلى جمعيات حماية البيئة في المستقبل، من يدري؟ ولكن من المؤكّد أن حبّ الريف والحدائق والأزهار والأشجار سيضفي على حياتها كثيراً من المتعة والبهجة. تجوّلت معها في بساتين الغوطة ذات يوم، ورحت أدلّها على أنواع الأشجار المثمرة: الجوز، واللوز، والمشمش والتفاح، والكرز والأجاص، وألفت انتباهها إلى التباين في أشكالها، وأوراقها، ثم حدثتها عن جمال زهرها في فصل الربيع، وعن لذة فاكهتها في الصيف، وفائدتها للصحة. حدث ذلك في أواخر الصيف، حيث كان الثمر معقوداً على شجر التفاح والأجاص، فأصغت إليّ حبيبتي بانتباه، ثم قالت، وهي ترمقني بنظرة فيها شيء من التخابث، وقد أشارت بيدها إلى شجرة كبيرة:

ـــ انظري يا تيتا إلى هذه الشجرة، إنها تشبه جدّو...

فنظرت إلى حيث أشارت ورأيت شجرة جوزٍ كبيرة، وارفة الأغصان ومهيبة، فوافقت على هذا التشبيه، وإذا بها تدلّني على حورةٍ جميلة وتقول:

ـــ وهذه تشبه ماما!.

ــ الحق معك لأن أمك ممشوقة القامة ورشيقة مثلها، الآن قولي لي أية شجرةٍ تشبهني أنا؟.

فجالت بأنظارها في البستان ثم قالت:

ــ أنت يا تيتا تشبهين شجرات «أبو رمانة»...

فضممتها إلى صدري وقد سرّني هذا التشبيه الذي يبرهن عن حبّها لي لأن النخلات التي تزيّن شارع «أبو رمانة» هي أجمل أنواع الشجر في رأيها!.

وفي ذلك اليوم اشتريت لها تمراً وأخبرتها بأنه ثمر يحمله النخيل، لذيذ الطعم، مقوٍّ للجسم، ينبغي أن تأكل منه، لكي تكبر بسرعة، فأقبلت على أكله بشهية غير اعتيادية! تُرى لماذا يحلم الأطفال بأن يكبروا، ويصبحوا شباناً، مثل آبائهم وأمهاتهم؟ إنهم يرغبون في تقليد الكبار، والوصول إلى عالمهم بسرعة، ولو كانوا يدركون نعيم طفولتهم، لتريّثوا في الخروج منه، وتمنّوا الاستمتاع به وبسعادته زمناً طويلاً...

مفاجـأة سـارة

أشرف الصيف على نهايته واقترب وقت الفراق ، ومنذ بداية شهر أيلول بتّ أعدّ الأيام ، وأشعر بغصّة لوداع ابنتي وحفيدتي . لقد ازداد ولعي بالطفلة التي أضحت صحبتها متعةً ، ما بعدها متعة ، كما تعلقت هي بنا وألفت العيش في كنفنا ، وسعدت به ، فقالت لأمها يوم سمعتنا نتحدث عن موعد سفرها إلى الرياض :

ــ لماذ سنسافر يا ماما ، أريد أن أبقى هنا ...

فأجابتها :

ــ سنسافر إلى الرياض من أجل بابا ، إنه وحده هناك ، يشتغل من أجلنا ، ألا تحبينه ؟ .

فقالت الطفلة :

ــ طبعاً أحبه ، ولكنني أحب جدّو وتيتا « كمان » فلماذا لا يأتيان معنا ؟ .

فتدخّلت بالحديث وقلت لها :

ــ نحن عائدان إلى بيروت يا « تيمة » بعد سفركما ، ولكننا سنأتي

إلى الرياض لزيارتكما، بعد أن نُنهي أعمالنا فيها... كما أنك ستذهبين إلى المدرسة في الرياض، وتتعرفين على رفيقات، وتتعلّمين أشياء جديدة، لأنك صرتِ كبيرة.

فسكتت حبيبتي على مضض، وغيّرنا الحديث أمامها كيلاتكتئب. لم يكن إلهاؤها عن الموضوع صعباً، فالأطفال ينسون بسرعة، ولكنها فتحته مجدداً في المساء، بينما كانت تتعشى، وسألت أمها:

— لماذا لا نعود إلى بيتنا في بيروت يا ماما؟ أحبّ بيروت لأن فيها بحر، وفيها جدّو وتيتا، وفيها غرفتي الحلوة وألعابي...

فأجابتها:

— سنرجع إلى بيتنا في بيروت عندما تنتهي الحرب فيها، ولكننا سنقضي هذه السنة في الرياض، وسوف تأتي تيتا مع جدّو ويقضيان عندنا كل الشتاء.

سكتت الطفلة التي حزّ في نفسها الاغتراب، وفراق الذين تحبهم، مثلما كان يحزّ في أنفسنا جميعاً، ولا أحسب أن إنساناً في هذه الدنيا يطيب له البعد عن بلده وأهليه، في مثل هذه الظروف الطارئة. ولكن ما العمل والفتنة في لبنان ما زالت مستشرية، والأوضاع فيه تسوء يوماً بعد يوم، ونحن نتابعها ونترقّب بادرة انفراج، لا تكاد تلوح في الأفق، حتى يلتهما سحاب أسود، يتصاعد من دخان الصواريخ والقنابل والحرائق. لقد أمسينا نتوجّس خيفةً من الإصغاء إلى نشرات الأخبار، وقراءة الصحف، لأنها لم تكن تحمل إلا المقلق والمرّوع، مما سبب لنا ضيقاً شديداً من الواقع المؤلم، الذي انعكس أيضاً على حبيبتي الصغيرة، وأقلقها. فالأطفال يشعرون بما يجري حولهم، ويحيط بهم، أكثر مما

نتصوّر، فقد خفّت شهيتها للطعام، وازداد تعلقها بنا، واضطرب نومها. أذكر أننا حاولنا طمأنتها، في الأيام التي سبقت موعد السفر إلى الرياض، بشتى الوسائل، ولكنها ظلّت مشوّشة، وكانت تعرب عن حزنها لفراقنا، وفراق ابن خالتها «ميمو»، والقطة «ياسمينة»، وأم خالد وأولادها، بأحاديثها، وأسئلتها المتكررة...

وذات يوم وصل أبوها من الرياض بشكل مفاجىء، وقال إنه أتى لقضاء بضعة أيام معنا. ففرحت به وفرحنا نحن بما حمله من أخبار تتصل بعمله. أعلمنا أنه سيسافر إلى لندن بمهمةٍ، وأنه قرّر اصطحاب زوجه وابنته معه، فألغت ابنتي حجزها في الطائرة إلى الرياض، وشرعت بتهيئة سفرها والحبيبة إلى انكلترا. كان جدّا حفيدتي يقيمان في لندن مؤقتاً، فعزمنا، زوجي وأنا، على التوجّه إليها بأسرع وقتٍ، لإجراء فحوصاتٍ طبية فيها، كنا في حاجةٍ ماسةٍ إليها. هذا القرار هو ما جعل وداعنا لهم في مطار دمشق سارّاً للجميع، فهمستُ في أذن حبيبتي كلمات، قبل مفارقتها، كانت مفاجأة أفرحتها كثيراً: عانقتني وقبلتني، ثم أمسكت بيد أمها، وقد ازداد البريق في عينيها الماسيّتين. وقبل أن تغيبا عن أبصارنا، التفتت إليّ وقالت بأعلى صوتها:

ــ لا تفشي السرّ يا تيتا... سنستقبلك قريباً في مطار «دُنْدُن»، فلا تتأخري... باي باي!!!.

وأرسلت إلينا قبلات في الهواء. أما الكلمات التي همستُها في أذنها، وأفرحتها، فهي وعدٌ قطعته على نفسي بالبقاء معها، إبان لقائنا في لندن، ليل نهار، واصطحابها إلى النزهات والأسواق...

بلغنا مطار لندن في منتصف شهر أيلول، ووجدنا الحبيبة

وأبويها بانتظارنا فيه ، ولا أدري لماذا سمّت هذه المدينة العظيمة « دُنْدُن » لا « لُنْدُن » ، مع أنها كانت تلفظ سائر الأحرف لفظاً صحيحاً . وقد طاب لي إذ ذاك أن أقتبس منها هذه التسمية ، ووفيت بوعدي لها ، مما جعل إقامتنا في عاصمة بريطانيا من أسعد أيام العمر وأمتعها . اكتشفت معها حدائق عامة لم أكن أعرفها ، وحديقة الحيوان التي زرناها على مراحل متعددة ، وكيف لا أسعد ولا أستمتع بصحبة فتاةٍ ذكيةٍ ، متفتّحة للحياة ، قوية الملاحظة ، لطيفة المعشر في ذلك الظرف العصيب من حياتي ؟ لكم كان فيكتور هوجو محقاً عندما قال في قصائده لأحفاده :

حين نراهم يُخيّل إلينا أننا نرى أنفسنا تتفتّح كالزهر ،
نعم فحين نصبح جدوداً نلج في روعة الفجر !

لقد تركت المسارح والأسواق في لندن للراغبين فيها إذ لم يكن لي هوىً فيها يومئذٍ ، وآثرت عليها الركض في الحدائق ، والتنقل بالباصات ذات الطابقين ، والتوقّف في حديقة الحيوانات ، عند كلّ نوعٍ منها نتعرّفه ، ونتحدث عنه ، وأصوّر حبيبتي معه وهي مسرورة ، مندهشة ، منشرحة الصدر ، فكان صدري ينشرح ، وكنت أسلو هموم الساعة ، والماضي والمستقبل ... أما الليالي والسهرات في « دُنْدُن » فكنا نقضيها في الشقة التي استأجرناها سويةً ، فيخرج أبواها الشابان للقاء أصدقائهما ، ونبقى نحن مع الحبيبة نتسامر ردحاً من الزمن ، ونعتني بها إلى أن تنام ، ثم نتابع أخبار العالم ، ونشاهد برامج الشاشة الصغيرة . لقد لازمت حبيبتي أكثر الأحيان ما عدا مراتٍ قليلة تركتها مع والديها إذ كنت مضطرة لإجراء فحوصات طبية .

انتهت مهمة صهرنا في لندن بعد زهاء عشرين يوماً ،

انقضت كما تنقضي عشرون ساعة، فتوجّه إلى الرياض مع أسرته الصغيرة، تحدوهم الآمال باستقبالنا فيها، بعد بضعة أشهر. لقد عادوا إلى المملكة العربية السعودية بنشاط متجدّد وعزيمة قوية، وعدنا من وداعهم وقلوبنا تلهج بالحمد لله، على أهم شيئين في الحياة: النسيان والأمل: نسيان ماضٍ قريب محزنٍ ولو مؤقتاً، وأمل قويّ في آتٍ مشحون بالبشائر في الأمن والاستقرار. أما النسيان فهو نعمة عظيمة على البشر في حياتهم، حدت بـ «سيرفانتس»، صاحب «دون كيشوت» لأن يقول: «آه منكِ أيتها الذاكرة! إنكِ عدوّةٌ تفتك براحتي!» وأما الأمل، تلك النعمة الكبرى في حياة كلٍّ منا التي تتعطل الحياة من دونها فإن من أجمل ما قيل فيها هو ما كتبه «كرونان» حيث قال: «حين يُفقد الأمل يكون الجحيم!».

ما هو الموت

عدنا إذن إلى بيروت يحدونا الأمل بتوقّف القتال، ولكن الأحداث خيّبت الآمال جميعاً. لقد طاشت عقول الفرقاء المتناحرين، وأخفقت مساعي التوفيق بينهم، ولم يعد أحد قادراً على إدراك ما كان يحدث، ولماذا يحدث، ومن هو محرك الفتنة، وإلى أين المصير؟ فأدركنا نحن، والأكثرية الصامتة مثلنا، ألّا حيلة لنا سوى الصبر على الشدّة، طوعاً أو كرهاً. أما رئيس الجمهورية اللبنانية الجديد الذي انتخب في نهاية الصيف المنصرم، فقد واجه مشكلات مستعصية، اضطرته للاستنجاد بقوات الردع العربية، فدخلت بيروت، كما ذكرت، في إثر فشل مساعيه لوقف القتال.

لقد توفّيت والدتي في خريف تلك السنة، وفقدت بفقدها أعزّ إنسان تبقى لي في الوجود، بعد أبي، رحمهما الله، فكنا نتردّد على دمشق، ونقيم فيها بضعة أيامٍ، والأسى يحزّ في قلبي وقلب إخوتي لأنها كانت امرأةً عظيمةً، حكيمةً، ومجاهدةً عزّ نظيرها بين نساء جيلها. لبست ثياب الحداد، لأن المحزون لا يشتهي ارتداء

الثياب ذات الألوان الزاهية، مع أنني كنت أعترض على اللباس الأسود الذي اقتبسناه من الفرس، وأدعو إلى ارتداء ثياب بيضاء في حالة الحدادِ، جرياً على عادة المسلمين الأوائل، والأندلسيين بعدهم، وذلك بدليل قول الشاعر ابن المهيمن الحضرمي الأندلسي:

لَئِنْ كان البياضُ لباسَ حُزْنٍ
بأندلسٍ فذاكَ من الصوابِ
أَلَمْ تَرَنِي لَبِسْتُ ثيابَ شَيْبِي
لأنني قد حَزِنْتُ على الشبابِ؟

علمت ابنتي ندى بوفاة جدتها، فأتت إلى بيروت مع زوجها والحفيدة لتعزيتي في ١٩٧٧/١/٢٥. نظرت إليّ الطفلة الحبيبة باستغرابٍ، وشابت قسمات وجهها مسحة من الحزن لأول وهلة. كانت أمها قد هيأتها نفسياً قبل مجيئهما لزيارتي، فأعلمتها بوفاة أمي، ولكنها لم تكن تتوقّع أن تراني دامعة العين، حزينة النفس، مرتديةً الثياب القاتمة دون أية زينة. لقد ساءني أن أراها منغّصةً، فخرجت معها بعد الغداء للسير في الشارع، قرب بيتنا، إذ كان النهار صاحياً، والحالة الأمنية هادئة. حاولت جرّها إلى الحديث عن مدرستها، ورفيقاتها في روضة الأطفال فأجابت عن أسئلتي بتحفّظ، وعلى شفتيها سؤال حائر، لحظت أنها تتردّد في طرحه عليّ، فقلت لها:

— أراكِ مرتبكة يا «تيمة» وأنت صديقتي التي لا تخفي عني شيئاً مما تفعله، أو تشعر به، قولي لي بم تفكرين؟.

نظرت إليّ وشدّت يدها على يدي ثم قالت بصوتٍ مرتعش:

ـــ أنا « زعلانة » لأن أمك « تيتا الكبيرة » ماتت ، ما هو الموت يا تيتا ؟ ولماذا ماتت ؟ لا أريد أن تموتي ، ولا أن تموت أمي ...

فشددت على يدها بدوري وقد اعتصر قلبي تأسّياً للقلق الذي سيطر على قلب الطفلة الحبيبة ، لدى ذكر الموت ، ذلك الغول الذي يخطف الناس ، ولا يفرّق بين طفلٍ وشابٍ ، وكهلٍ وشيخ . لقد راعني اضطرابها ، وأصابتني الحيرة أمام هلعها من كلمة الموت ومعنى الموت ، ولغز الموت ... ثلاثة أحرف مروّعة : م ، و ، ت ، وما أكثر الكلمات المروّعة المؤلفة من ثلاثة أحرف في قاموسنا : خوف ، جوع ، سوط ، حقد ، مرض ، جرح ، حرق ، ذبح ، خطف ، الخ ... ولا سيما الخطف ، في هذه الأيام السوداء ، الذي أضحى دارجاً إما لابتزاز المال ، وإما للمساومة على تبادل الأسرى ، وإما للتعذيب والتمثيل بجثة المخطوف على الهوّية بعد قتله ، لوجه الشرّ والشيطان ...

كان واجباً عليّ أن أجيب حبيبتي عن أسئلتها لأهدّىء من روعها في أول مرةٍ تواجه فيها مشكلة الموت ، فتوقفت عن السير ، وقلت لها ، وعيناي تنظران إلى عينيها :

ـــ الموت هو نهاية حياة الإنسان على الأرض ، وبدايتها في السماء ، وقد ماتت أمي يا حبيبتي لأنها كانت مريضة جداً ، وكبيرة في السن ، أما أنا وأمك وأبيك وأنت فلن نموت الآن ، لأننا لسنا مرضى ، ولسنا « ختياريّة » فلا تخافي ، ولا تفكري بهذه الأمور أبداً ! الحياة جميلة جداً ، أمامك وأمام أبويك ، وأمامنا مستقبل سعيد ، ومشاريع مهمة وممتعة سنحقّقها إن شاء الله .

أطرقت الطفلة هنيهة ، ثم تشجّعت وقالت :

ـــ ولكن أم رفيقتي « شيرين » ماتت في الرياض وهي صبية مثل ماما . . .

فقلت لها بسرعة ، وكأنني على علم بموت أم رفيقتها الشابة :

ـــ لقد ماتت أم شيرين لأنها كانت مريضة هي أيضاً ، فالشباب يموتون أحياناً إذا أصيبوا بأمراض لا يمكن شفاؤها ، أو إذا تعرّضوا لحادثٍ خطير في السيارة . المهم أن نعتني بصحتنا ، وأن نؤمن بأن الموت يعني الانتقال من هذه الدنيا إلى عالمٍ آخر هو الجنة في السماء ، حيث نظلّ فيها أحياءً ، ولا يموت فيها أحد أبداً ! هذا هو ما وعدنا به الله الذي خلقنا ، ووصّانا بأن نكون طيّبين .

عندئذٍ انفرجت أسارير حبيبتي ، ولكنها سألتني بعفوية :

ـــ ولماذا أنتِ لا تتزيّنين كعادتك ، ولا تغيّرين هذه الثياب السوداء ما دامت أملكِ ذهبت إلى الجنة في السماء ؟ .

أحرجني سؤالها المنطقي فقلت لها :

ـــ أنا متأكدة أن أمي ذهبت إلى عالمٍ جميل في السماء ، وأنها تعيش في الجنة ، لأنها كانت امرأة صالحة ، وأماً عظيمة ، ولكن لا أخفي عنك يا حبيبتي أنني حزينة على فراقها ، وهذا ما يجعلني زاهدة في الزينة ، وفي ارتداء الثياب الملّونة . . . على كل حال سأبدّل هذه الثياب بثيابٍ ملّونة عما قريب ، وسأذهب معك لتصفيف شعري عند الحلاق غداً ، فلا تبتئسي .

وفي اليوم التالي ذهبت إلى الحلاق بصحبتها ، ولبست معطفاً أبيض فوق ثوبي امتثالاً لرغبتها ، وحرصاً مني على راحة بالها ، وانفراج همّها . وقد اضطررت إلى السفر لإسبانيا وانكلترا ،

قبل رجوعها إلى الرياض مع والديها، لتوقيع العقود المتصلة بترجمة كتابي «الشعلة الزرقاء» المتضمن رسائل جبران خليل جبران المخطوطة إلى ميّ زيادة إلى اللغتين الإسبانية والإنكليزية. وهكذا تنقضي الأيام بانتصار الحياة على الموت الذي يُغيّب عنا أعزّ الأعزاء فنودعهم بحرقة، ولكننا نستقبل طلوع الشمس في كل يوم، فننهض لنكافح، ونسعى لتحسين حياتنا بالعمل الدائب.

الأميـرة والسباحـة

غابت عني حبيبتي ستة أشهر إذ لم تُتح لي فرصة زيارتها في الرياض لا في الشتاء ولا في الربيع. قضينا تلك الأشهر بين بيروت ودمشق، وبين المدّ والجزر فيما يتعلق بالحرب الدائرة في لبنان. كانت وسيلة الاتصال الفضلى بيننا الرسائل الصوتية، عبر أشرطة تسجيل، تبادلناها باستمرار، لانقطاع الاتصالات التلفونية في أكثر الأحيان. ولا ريب في أن الاستماع إلى أصوات أحبائنا وأحاديثهم خلال نصف ساعةٍ من الزمن، والإجابة عنها بحكايات خاصةٍ بالطفلة الحبيبة، وبأخبارٍ عائلية واجتماعية مفصّلة لوالديها مما يشفي الغليل، ويبعث على الاطمئنان، كما أنه مما يزيد في حَدة الشوق للقاء.

لقد كبرت حفيدتي بشكل ملحوظ إبان الأشهر الستة الماضية، ازداد وعيها، وتألّق جمالها، وانطلق لسانها في الحديث، وانصقلت حنجرتها في الغناء، ولا أدري ما إذا كان جرس صوتها في

الكلام أجمل وقعاً على النفس من صفاء غنائها؟ استقبلناها ووالديها في نهاية الشهر السابع بفرح عارم، والحرّ في بيروت لا يقلّ عن الحرّ في الرياض، بل ربما كان أشدّ منه بسبب ارتفاع نسبة الرطوبة على الساحل. وقد سمح لنا استتباب الأمن في ذلك الصيف بالتجوّل بين بيروت وبعض المناطق الجبلية، وبقضاء أيام بكاملها في مسبح «الكورال بيتش» ولكن حبيبتي لم تكن تسبح، ولم تكن ترغب في تعلّم السباحة بسبب خوفها من الغرق.

كانت تحبّ الماء للتراشق به مع أترابها ومعنا، وترفض النزول إلى البركة، سواء مع أمها أو معي رفضاً قاطعاً. تركناها تلهو كما يحلو لها، في الأسبوع الأول، وشرعنا بعده بتهيئتها نفسياً للتغلّب على الخوف، وإبعاد فكرة الغرق، وحثّها على السباحة، أسوةً بالعديد من الأطفال الذين كانت تغبطهم في قرارة نفسها. وبعد محاولاتٍ كثيرة لكسر الوهم المتسلّط عليها، وأحاديث في البيت لإقناعها، أتيح لي أن أعلّمها السباحة، على عدة مراحل: أولها الرضا بالنزول معي إلى البركة الكبيرة ويداها ملتفّتان حول عنقي، ثم تدريبها على تحريك رجليها، وثانيها موافقتها على أن أمسك جذعها بكلتا يديّ، وهي مسطحة، فأمشي بالبركة وهي تحرّك ذراعيها ورجليها، وثالثها قبولها بأن أُفلت يديّ، وأنا واقفة إلى جانبها على أتم استعداد لتلقّيها عندما تشاء. وهكذا وثقت بأن الحركات التي تعلمتها كفيلة بأن تجعلها تطفو على سطح الماء، وتسبح بحرية، دونما خوف بعد أن تعلمت كيف تقف في البركة وحدها بتحريك رجليها باستمرار. ولا أغالي إذ أقول إن اليوم الذي سبحت فيه حبيبتي وحدها كان يوماً سعيداً لها ولي: أما بالنسبة إليها فلأنها تحرّرت من عقدة الماء، واستمتعت بالسباحة، وأثبتت

لنا جميعاً أنها شجاعة، وأما بالنسبة إليّ فلأنني نجحت في مهمةٍ صعبةٍ ثانيةٍ، وعلّمت الطفلة الغالية ممارسة رياضةٍ جميلة ومفيدة.
ولعل أكثر ما أقنعها بترك نفسها على سجّيتها، واسترخائها في الماء قولي لها ذات مساء بأنها تعرف السباحة الجيدة مذ كانت جنيناً في حوض أمها، لكنها نسيت ذلك... فسألتني بتعجّب:

ــ وكيف يا تيتا؟.

فأجبت:

ــ لأنك أنت وأمك وأنا وكلّ الناس يسبحون في كيسٍ كبيرٍ من الماء قبل أن تلدهم أمهاتهم: لقد تكّونتِ في ذلك الكيس على مدى تسعة أشهر، وكنتِ تسبحين فيه، وتتحرّكين، وتتقلّبين حتى جاء يوم ولادتك، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نحب الماء، واللعب فيه، وإتقان فن السباحة بسهولة.

فسألتني ببراءةٍ عذبةٍ، وهي الواثقة من صدقي معها:

ــ وهل كنا نعرف القفز إلى الماء؟..

فقلت لها ضاحكة:

ــ لا أبداً!! ستتعلمين القفز إلى الماء بعد تعلّم السباحة مباشرةً، فالقفز يتطلب تدريباً. وجسماً قوياً، وبركة كبيرة... إذهبي إلى النوم الآن، وفكري جيداً بما قلت لك، عسى أن تتحمّسي غداً، وتثبتي للجميع أنك أميرتي الذكية القادرة على النجاح في كل شيء...

عندئذٍ ابتسمت لاعتزازها بلقب الأميرة وسألتني:

ــ لماذا أنا لستُ أميرة حقيقية؟.

أدركت أن إعجابها بصفات الأميرات الجميلات، بنات

الملوك والأمراء، اللواتي نقصّ عليها حكاياتهن المثيرة للخيال، الداعية إلى الزهوّ والخيلاء، هو ما يدفعها إلى التمثّل بهن، فقلت لها:

ـ ومن قال لكِ أنك لستِ أميرة؟ إن أمك يا حبيبتي هي ملكة في بيتها، وأباك هو ملك العائلة المسؤول عنها، أما الملوك والأمراء الذين يحكمون البلاد فإنهم بشرٌ مثلنا، ولكنهم يتعبون كثيراً في حياتهم لأنهم مسؤولون عن الشعوب المؤلفة من مئات العائلات! وكما أن على أمك وأبيك واجبات ومسؤوليات لتربيتك أنت وأخوتك، وتعليمكم، وتوجيهكم، فإن عليكِ أنت واجبات ومسؤوليات، هي الطاعة لهما، وحسن السلوك في البيت، وفي خارجه، والشعور مع المحرومين، ومساعدتهم، والاجتهاد في الدراسة. لا تنسي أنك حبيبتنا كلنا، واعلمي بأن كل حبيب أمير، بل ملك متوّج في قلوب الذين يحبونه. ولا تنسي أيضاً أن تاج الملوك والأمراء الذين يحكمون البلاد مصنوع من معدنٍ، ومن أحجارٍ ثمينة، ولكن تاجك أنتِ حفيدتي، وتيجان أحفادي أولاد خالك نزيه، وأولاد خالتك رشأ، مكوّنة من حبٍّ عميق، في قلبي وقلوب الذين يحبونكم، ومن حنانٍ وعطفٍ ودلال! إن هذا الحب أهمّ بكثيرٍ وأثمن من الجواهر والمال!

لحظت أن الطفلة لم تقتنع بفلسفتي، أو بالأحرى لم تدركها تمام الإدراك، على نباهتها، إذ داعب النعاس أهدابها، فحملتها إلى السرير والخواطر تتجاذبني: تُرى من هم الملوك والأمراء، وكيف نشؤوا؟ إنهم إما فاتحون استولوا على البلاد بقوة السلاح، والتفوق بالقتال، والشجاعة والطموح، وإما من سلالتهم، وقد توارثوا

العروش، ورفلوا بالعزّ والجاه، وسائر مظاهر التبجيل والتكريم. أما الذين نحبّهم في حياتنا حباً جماً، وننصّبهم ملوكاً على قلوبنا، بملء اختيارنا، فإننا نرضى بحكمهم علينا، ونستعذب سلطانهم على نفوسنا، بل وحتى استبدادهم بنا، أولم يقل الشاعر لحبيبه:

تِهْ دلالاً فأنتَ أهـلٌ لذاكَ ... وتَحكَّمْ فالحُسْنُ قَدْ أعطاكَ

وسرعان ما انفتحت إحدى خزائن حافظتي فتذكّرت قولاً جميلاً، كنت قد سمعته من جدّتي المغفور لها:

إذا أردتَ أن تلبسَ فلا تلبس إلا الحرير،

وإذا أردتَ أن تخطبَ عروساً فلا تقرع سوى بابٍ كبير

وإذا أردتَ أن تعشقَ فلا تعشق سوى أمير، حتى إذا عيّرك الناسُ يستحقّ التعيير!...

وتذكرت أيضاً مقطعاً من مقالةٍ للأديبة النابغة ميّ زيادة، خاطبت به الفتاة الناشئة، واعتمدته وزارة التربية والتعليم المصرية ليدرّس في معاهدها، جاء فيه قولها: «الحياة أمامك أيتها الفتاة الصغيرة، ولكِ أن تكوني فيها ملكةً أو عبدةً: ملكةً بالاجتهاد والترتيب، وحفظ اللسان والصدق، والعفاف والعمل المتواصل، وعبدةً بالكسل والتطفّل، والثرثرة والتواكل والتبذّل...»

أميرتـي تريـد أخـاً

عادت أميرتي الحبيبة إلى الرياض مع والِدَيْها في أواخر شهر أيلول، ورجع إلى بيروت حفيدي الدمشقي «ميمو» مع والديه وأخيه الطفل الرائع: «أيمن» الذي كان يبلغ من العمر ثمانية أشهر فقط. كان الوضع الأمني يسمح بالتجوّل باطمئنان وكأننا في فترة هدنةٍ مؤقتة إذ لا شيء يشير إلى عودة الحياة الطبيعية التي نتمناها قائمةً على أسسٍ عادلةٍ، وإصلاحاتٍ جذرية، فانتهزنا الفرصة للقيام بزيارات للأصدقاء المقيمين في صوفر، وفي بيت مري، وفي جلّ الديب، وسعدنا بها كثيراً. وقد شجّع استتباب الأمن صهرنا المغترب وابنتنا على القيام بزيارةٍ لأهله ولنا في بيروت. فقدما من الرياض، في منتصف شهر تشرين الثاني مع أميرتي، حيث قضوا أسبوعين، كانت الطفلة الحبيبة ضيفتنا خلالهما بضعة أيامٍ وليالٍ، وما أعذبها ضيفةً تبهج النفس، وتنوّر البيت، وتملؤه فرحاً وحياةً!!.

كنت أُغرق نفسي في الكتابة حين غياب حبيبتي، وأوقف كل نشاطٍ أدبي حين وجودها بالقرب مني، لأن فرص اللقاء بيننا

كانت قليلة وقصيرة، فلو كانت مقيمة في بيروت معنا، لكان بوسعي المثابرة على العمل، والاستمتاع بصحبتها كما أشاء، وحينما أشاء، ولكن... ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، ولا بد لي من الاعتراف بأن السعادة التي تغمرني عندما أتفرّغ إليها، وألج عالمها الملائكي، وأجول فيه، وأنهل من ينابيعه المنعشة، تفوق السعادة التي تغمرني عندما أنغمس في كتابة قصة أو رواية، أو بحث ينسيني كل ما عداه، ويهّزني طرباً توهّج فصوله وكلماته وحروفه.

كان في نيّتنا السفر إلى الرياض في الشتاء المقبل، فأعددنا العّدة لذلك، ولكن ابنتنا أعلمتنا في إحدى رسائلها الصوتية أن «عصومة» تشكو من زكام شديد، وضيق في التنفّس، فأشار الطبيب باستئصال الزوائد في أنفها، بعد تحسّن حالتها الصحية. كانت ابنتي تفضّل إجراء هذه العملية في بيروت فقدمت إليها مع الطفلة في شهر شباط، وانقضى الأمر الذي أقلقنا بسهولة من غير أن تعلم الطفلة، الشديدة الخوف على نفسها، بما سيُجرى لها... لقد تضايقت بعض الشيء بعد صحوها من المخدّر، ولكن مما لا شك فيه أن الملائكة تحرس الأطفال، وتخفّف عنهم الألم والضيق عندما يمرضون. كما أن ما ساعد كثيراً في سرعة شفائها، والقضاء على أوهامها، فرحها الكبير ساعة قلت لها في صبيحة يوم العملية:

ــ لقد استجاب الله دعواتك يا أميرتي لأنه سيعطيك أخاً، أو أختاً هذه السنة: إن ماما «ندى» حامل تنتظر مولوداً...

توهّج البريق في العينين الزرقاوين، وأشرقت ابتسامة عريضة في الوجه الجميل فقالت لي بحماسةٍ وسرورٍ:

ــ «ياي»!!. وماذا سنسمّيه؟.

قلت :

ـــ الإسم ستتّفقين مع بابا وماما عليه ، سواء أكان الطفل القادم صبياً أم بنتاً ...

فقالت :

ـــ أريد أن يكون لي أخ مثل « ميمو » ...

فقّلت :

ـــ لا فرق أبداً في أن يهديك الله أخاً أو أختاً يا عصومة ، المهمّ أن يأتينا طفل ذكيّ وجميل مثلك ، ولا تنسي أنك ستبقين أنت الأخت الكبيرة ، وستساعدين أمك في تربيته ! .

وقلت لنفسي : « عجباً » حتى الأطفال مثل حبيبتي يفضلون الذكور على الإناث ! ثم فكرت قليلاً بسبب رغبتها في أن يكون لها أخ ، هل تُرى لكي يشدّ أزرها عندما يكبر ؟ فرأيت أنها لا تدرك بعدُ أهمية وجود أخٍ لها في معترك الحياة ، وإنما هي تؤثره لكي تظلّ البنت الوحيدة المدلّلة في بيت أبويها ، ولأن الإنسان ، حتى الطفل ، مفطورٌ على حبِّ الجنس الآخر . وبعد أيام قليلة تعافت حبيبتي ، ونسيت ما أصابها ، نهضت من فراشها تقفز على الأرض ، ارتدت ملابسها ، مشّطت شعرها ، وغرقت في حديثٍ طويل معنا عن المولود المقبل الذي شحذ خيالها قدومه ، وشغل بالها . أخذت تفكر بشكله قبل كل شيء : هل سيكون أسمر أو أشقر ؟ هل سيبكي في الليل ويعّذب أمها ؟ هل سينام في غرفتها ؟ ومتى سيأتي وأين ؟ من هذه التساؤلات العذبة التي طرحتها على والديها وعليّ وعلى جدّتها لأبيها فأكدنا لها أنه سيولد في بيروت في آخر الصيف المقبل ، لأن طبيب أمها المولّد موجود فيها ، ولأننا سنكون مجتمعين كلنا في شهر أيلول لاستقباله ، كما استقبلناها يوم ولدت هي .

هان الوداع في هذه المرة يوم عودة حبيبتي إلى الرياض وقد اجتاح مخيلتها أمل كبير لوّن أحلامها بألوان قوس قزح، وعدت أنا من المطار إلى البيت مسرورة، لأن عدد أحفادي الأعزاء سيزداد هذه السنة فيصبحون سبعة. ولولا توالي الغارات الجوية الإسرائيلية على جنوب لبنان في الربيع، واضطرار عائلات متعددة للهرب منه، والمجيء إلى بيروت لكانت الأوضاع العامة هادئة نسبياً. بعض هذه الأسر لجأ إلى بيوت أقربائه، وجلّهم أخذ يحتلّ البيوت الفارغة في غياب أصحابها، فعمّت الفوضى في سائر الأحياء السكنية، وانتشر فيها المسلحون، من مختلف الأحزاب، ليزيدوا في البلبة، بغياب قوات الأمن والحكومة والقانون.

كنا قد بنينا شقة في بلدة «بعبدات» في الجبل، للسكنى فيها صيفاً شتاءً، فأضحى الوصول إليها متعذّراً بسبب تشابك القوات اللبنانية المسلحة في الجبل، وفي شرقي بيروت مع قوات الردع العربية، لذا صرفنا النظر عن التفكير فيها إلى أن تعود المياه إلى مجاريها. إن من يعيش في حالة حرب مضطر لإلغاء مشاريع المستقبل، وحصر اهتمامه باليوم الحاضر وحده، ولا سيما إذا كان كهلاً ومتقاعداً مثلنا... هذا ما كنا نتقبّله مرغمين بانتظار بادرة انفراج مستعصية، ولكن وجود ابني وزوجه وأولاده قريباً منا، وعودة حبيبتي إلى بيروت مع أمها، قبل حلول فصل الصيف، وزيارات ابنتي الثانية المتقطعة إلينا كان تفريجاً للكرب، وتعزيةً لنا كبيرة. وقد أتيح لي أن أصحب أحفادي ومنهم الطفلة المغتربة، إلى النادي الرياضي للسباحة، فكنا نذهب بحذرٍ شديد، ونعود إلى بيوتنا بسرعة، سعداء باختلاس بضع ساعات للترويح عن النفس.

أصبحت أميرتي تسبح برشاقة فأوصيتها، يوم ودّعتها، بأن تمارس السباحة في الرياض فقالت لي مداعبةً:

— وسأتعلّم القفز إلى الماء يا تيتا، وأعلّمكِ إياه حين رجوعي إلى بيروت!.

فتذكرتُ فشل محاولاتي السابقة للقفز إلى بركة السباحة ذلك إنني تعلمت السباحة بجهدٍ، بعد بلوغ الثلاثين من عمري، وأنا امرأة تعرف حدودها، وتقف عندها، ولا ريب في أن العلم في الصغر كالنقش في الحجر... فلتعلم حبيبتي أن الأمل ضعيف في نجاحها بتعليمي القفز إلى الماء!.

احتـــدام « الأزمـــة »

كان صيف تلك السنة حاراً على جميع الأصعدة بسبب تدهور الحالة الأمنية، وارتفاع الحرارة والرطوبة، خلال أشهـره الثلاثة، ومع ذلك كنا نخرج من بيوتنا لابتياع حاجاتنا، وزيارة أصـدقائنا، وارتياد المسابح. كنا نعلم أننا نخاطر بأنفسنا في كلّ حركة أو تنقّل، ولكن من يعايش فتنةً هوجاء، مثل فتنة لبنان، يركب البحر للترويح عن نفسه، من غير أن يخشى الغرق فيه. أما الذين أضـحوا فريسة الخوف، وظلوا محاصرِين في بيوتهم فقلما نجا منهم أحد من الانهيار العصبي.

اقترب موعد ولادة ابنتنا فوصلت إلى بيروت مع زوجها والحبيبة، في أواخر تموز، وهذا ما دّونته في مذكرتي بعد اجتماع الشمل: الرعب يخيّم على الناس في بيروت وسائر أنحاء لبنان: انفجارات وحرائق، مناوشات بالأسلحة الثقيلة والخفيفة في العاصمة وضواحيها، إشاعات مقلقة تزيد في حدّة التوتّر، وقد أضحى لبنان بلداً ممزقاً، منقسماً إلى أجزاء متخاصمة، كل جزءٍ

منه يحسب نفسه دولة !! . رحم الله جبران الذي قال : « ويلٌ لأمةٍ منقسمةٍ إلى أجزاءٍ ، وكل جزءٍ منها يحسب نفسه أمّة ! » لهذا سيطر الوجوم على الناس كافةً . أما الوضع في بيتنا فقد انتعش بعودة الأحباب المهاجرين إليه : « كان نهارنا تبعاً لليلنا في السكون والاستيحاش ، فأضحى ليلنا تبعاً لنهارنا في الألفة والاستئناس . » كما قال ابن حزم في « طوق الحمامة » .

من نعم الله العظيمة جهل الأطفال الأخطار المحيقة بهم ، وانشغالهم الدائم بعالمهم الذاتي المترع بالخيال والأمل . أحاديث حبيبتي وأناشيدها ، ضحكاتها وتغريدها ، برامجها واستعدادها لاستقبال المولود الجديد عما قريب مما حسر الكآبة عن نفوسنا ، وألهانا عن التفكير بما يجري حولنا ، وما يمكن أن يحدث . لقد جَلَت طلعتها المبهجة الهموم عن أنفسنا ، وكان لا بدّ من اختلاس فترات الهدوء النسبي في الحالة الأمنية ، للذهاب معها إلى المسبح . ولن أنسى ما حييت الرعب الذي تملّكها وتملكنا في اليوم الأول من شهر آب : كنا في مسبح « الكورال بيتش » في الثالثة بعد الظهر ، وكان المسبح يغصّ بالناس كهولاً وشباناً وأطفالاً ، أموّه للتفريج عن النفس ، إلى ما قبل المغيب . في نحو الرابعة انهمر الرصاص على المكان الفسيح من كل جانب ، وأصابت الرشقات الطائشة عدداً كبيراً من الموجودين فيه . ارتفع صراخ الأطفال ، ودبّ الذعر ، وهرع الناس يفتّشون عن أطفالهم ، وعن بعضهم بعضاً ، إذ كانوا منتشرين في أرجاء المكان ، منهم من كان قريباً من ولده ، فانبطح معه في الأرض ، وتحت الطاولات ، ومنهم من كان جالساً على شرفات غرف الفندق ، فاندسّ فيها مسرعاً ، ومنهم من كان بالقرب من الشاطىء ، أو في المسبح ففقد أعصابه ، وجرى يبحث عن

ذويه منادياً، مستغيثاً. أحمد الله أنني كنت جالسةً بالقرب من حبيبتي ومن المبنى فحملتها، وأدخلتها إليه بسرعة، ثم رحت أبحث عن ابنتي الحامل. كانت زخات الرصاص قد توقّفت فوجدتها مع صديقاتٍ لها في مدخل الفندق وقد دخلن إليه يسألن برعبٍ عن المفقودين والمصابين. وفي دقائق معدودة تجمّع الناس، وفرغت المسابح والحدائق، وضُمّدت جروح المصابين التي كانت طفيفةً بشكل عامٍ. ومنذ ذلك اليوم امتنعنا عن ارتياد المسابح والنوادي إذ كان هذا الحادث درساً كافياً لنا وللعديد من الناس الذين حُرموا مثلنا من السباحة واستنشاق الهواء الطلق في ذلك الصيف القائظ. لقد انحصر رواحنا ومجيئنا في مساحةٍ صغيرة بين بيتنا وبيت أهل صهرنا، وبيت ابني القريب منه، وواجهنا مشكلات من نوعٍ جديد كانقطاع الكهرباء المتكرّر، وتعطّل الأفران أحياناً بسبب فقدان الغاز، مما جعل الحصول على الخبز اليومي أمراً عسيراً. على هذه الحال انقضى شهر آب اللهاب الذي صادف شهر رمضان المبارك، شهر الصيام، وشهر السهرات الليلية العائلية، مع الأهل والأصدقاء، في تقاليدنا المتبعة التي نسفتها الحرب، وأرغمت الناس على العزلة في بيوتهم ليل نهار... لقد أثبتت لنا تلك الأيام العصيبة أن طاقة الإنسان على احتمال الشدائد أقوى بكثير مما يظن، فعندما يواجهها أحدنا يعجب من نفسه كيف يصبر عليها، ويتجاوزها، ولا يزال قادراً على احتمال المزيد منها. المهمّ أن أيلول أطّل علينا حاملاً معه نسمات ليلية منعشة، وآمالاً، ولو ضعيفة، بوضع حدٍّ للفتنة، عقدناها على هدوء الحالة الأمنية، وتعليقات بعض الصحف اليومية على الأنباء السياسية. ولكن... ولكن ليلة الثالث من شهر أيلول قضت على الآمال، وألقت الرعب في أحياء بيروت وساكنيها، وهزّت الأرض والفضاء!

في تلك الليلة الدهماء لعلع الرصاص بشكل مفاجىء من كل ناحيةٍ وصوب، وتطايرت القذائف، وعلا ضجيج الناس في الطرقات، في حوالي التاسعة والنصف، لا لاندلاع الاقتتال بين المتحاربين، إنما ابتهاجاً بإثبات عيد الفطر، بعد رؤية هلال شهر شوال، الذي يعقب شهر رمضان! بلى: نحن أمة تطلق الرصاص إذا فرحت، وإذا عيّدت، وإذا كرّمت زعماءها، أو زوّجت أبناءها، أو شيّعت موتاها!!! . أصبح الرصاص يُشرى ويباع مثلما يُشرى القوت اليومي ويباع، وأضحى الشباب المراهقون مزهوّين بحمل المسدسات و«الكلاشنكوف» أُسوة بالرجال، كيف لا وقد تركوا المدارس والعلم، وأُدخل في روعهم أن الرجولة في حمل السلاح، والانضمام إلى المنظمات والأحزاب، للدفاع عن شعاراتهم الملهبة للمشاعر، لقاء مرتباتٍ شهرية مغرية، عيدُ، بأية حالٍ عدت يا عيد!! الأطفال النيام صحوا على أزيز الرصاص المتطاير يبكون، والكبار الذين تسرّعوا وخرجوا إلى شرفات بيوتهم ليستطلعوا ما جرى فلقد أصيب بعضهم بالرصاص الطائش، وأما الذين قبعوا في أمكنتهم، أو لجؤوا إلى الأروقة ذات الجدران الكثيفة في دورهم، فقد ظنوا أن جهنّم تقذف حممها على المدينة، وأخذوا يطلبون الموت في صلواتهم للخلاص من ذلك العيش المضني! لقد طفح الكيل حقاً، وكره الناس عيشهم المحفوف بالهلع والضيق بعدما تعطلت لغة الكلام، لتتكلم لغة القذائف والرصاص، وانقطعت سبل الحوار لتتحاور المدافع والمتفجرات. تُرى هل فقد المتقاتلون ألسنتهم؟ ولماذا يصمّون آذانهم دون استغاثات المنكوبين ونداءات العقلاء؟ ألا ليتها كانت ثورة شعبية منظمة للمطالبة بإصلاحات اجتماعيةٍ جذريةٍ، تؤمّن العيش الكريم لسائر المواطنين، والعلم المجاني لأولادهم، وتطالب بالإطاحة بالإقطاع،

ومعاقبة المتاجرين بالرغيف والسلاح، والمحتكرين الوقود والغذاء، والمتآمرين على الوطن الصغير الجميل من داخله ومن خارجه، أياً من كانوا!! ألا ليتها كانت ثورة شريفة على الظلم والاستغلال لما تذمر أحدٌ منها مُحِبٌّ للبنان، حريص على أن يتمخّض عنها وطنٌ جديدٌ، العدالة الاجتماعية فيه مستتبّة، والحرية الفكرية والاقتصادية، والكرامة لجميع مواطنيه مُصانة!!.

على هذه الحال توالت أيام حمل ابنتنا الأخيرة ولياليها فكانت طويلةً، مرهقة لها ولنا، في غمرة المفاجآت المرعبة، ولقد بتّ أخشى أن يمنعنا اندلاع المعارك من نقلها إلى دار التوليد عندما يحين المخاض ولكن ولادتها تمّت في أثناء أسبوعٍ كان الوضع الأمني فيه يسمح بالتجّول، فرزقت بنتاً ثانيةً أُطلق عليها إسم «عزّة»، وهو اسم على مُسمى، للشبه الواضح بين المولودة والظباء في جمال العيون، وحلاوة القسمات، وأناقة السمات. أحبّت أميرتي الحبيبة أختها حباً كبيراً مذ رأتها لأول مرة، وما أعذب مناغاتها لها بصوتها الرقيق، وهي راكعة أمام سريرها!.

انقضت مدة إقامة ابنتنا في دار التوليد دون أن يحدث أي تعكير في الأجواء البيروتية، فحملنا المولودة وصحبناها وأمها إلى البيت في ١٩٧٨/٩/٢٧ ولكن أيامنا فيه كانت مزعجة للغاية لانقطاع الماء والكهرباء في أكثر الأحيان، وتجدّد المعارك بين قوات الردع والجبهة اللبنانية في بيروت وضواحيها. كان أكثر ما أقلقنا اضطراب النفساء الصحي والنفسي، وأكثر ما ضايقنا انقطاع الماء، مع اشتداد الحّر لذا توّجهنا إلى دمشق مع الوالدة والمولودة وحبيبتي هرباً من واقعٍ لا يطاق. في تلك الأثناء كان رئيس الجمهورية اللبنانية يتشاور مع الدول العربية لحلّ «الأزمة»، وتقرّر

عقد مؤتمر لوزراء الخارجية للعمل على حلّ ما أسموه «الأزمة اللبنانية» فهدأت الحالة بمجرّد انتشار الخبر لأن لمثل هذه الأنباء مفعولَ العقاقير المهدئة لدى المرضى، لا أكثر ولا أقل! لقد رجعنا إلى بيوتنا في بيروت بعد أسبوع نقاهةٍ في دمشق، ثم سافرت ابنتنا وطفلتيها إلى الرياض، فبقينا في أتون بيروت غير مطمئنين للحلول المؤقتة، ولا قانعين بجدوى معالجتها بالأسلوب المتبع، ما دامت الفتنة هي «أزمة»، والهزيمة هي «نكسة»، في قاموس تاريخنا القومي الحديث!.

حبّ الطيور وحب الحرية

استقبلنا سنة ١٩٧٩ ظانين أن الجهود العربية لعودة الاستقرار إلى لبنان، ودعم الشرعية فيه، كفيلة بعودة السلم إلى ربوعه، وخروجه من المحنة. لقد استمر التفاؤل العام ثلاثة أسابيع فقط إذ بدأت سلسلة السيارات المفخخة تنشر الذعر، وتصيب الأبرياء أكثر مما تصيب المستهدفين من تفجيرها. في ١/٢٢ نجونا من الموت بأعجوبة في حيّ «ساقية الجنزير» حيث كنا في طريقنا إلى بيتنا، بعد زيارة إبني نزيه وعائلته، ولو لم نتأخر في المصبغة المجاورة لبيته، بضع دقائق لتسلّم حوائجنا منها، لكنا في الموقع الذي انفجرت فيه سيارة أحد الزعماء، وأحرق انفجارها السيارات المارة بالقرب منها، والمتوقفة على السواء! كنا فد خرجنا من المصبغة وأدرنا محّرك سيارتنا لحظة تزلزلت الأرض من تحتنا، وسمعنا انفجار الديناميت، وشاهدنا ألسنة النار المتصاعدة من مكان الحادث. أصابنا ذهول تبعته رجفة في الأوصاب، وشعور بالغضب الشديد والاستنكار. عدنا إلى بيت ابني ريثما تمّ إطفاء

الحريق، ونقل الموتى والجرحى، وإزالة آثار الجريمة التي ذهب ضحيتها الزعيم المستهدف وسائقه ومرافقه، وأناس أبرياء لم يحملوا سلاحاً في حياتهم، ولم يسيئوا إلى أحد، ولكن لم يَعُدْ يُحسب لهم أو لحياتهم أي حساب في مسلسل الاقتتال والتدمير... في كل مرةٍ كان يحدث فيها انفجار من هذا النوع، كان الناس يهرعون إلى مكانه إما للإسعاف، وإما لتفقّد السكان، وكانت خطوط الهاتف تتعطل من جرائه. لقد أمسى الموت السريع غاية المنى لدى الجميع، لإيثاره على التشويه، أو فقدان عضو من أعضاء الجسم، أما المغتربون الذين كانوا يسمعون الأخبار المشؤومة، ويشاهدون الأحداث المروّعة على شاشة التلفزيون فقد كانوا يبيتون على الجمر لشدة قلقهم على المقيمين في بيروت، ريثما يطمئنوا على سلامة أهليهم وأصدقائهم . لقد علمنا باضطراب ابنتنا المغتربة وزوجها من رسالةٍ صوتية تلقيناها من الرياض، تضمنت إصرارهما علينا بشدّ الرحال إليهما، ولا سيما أننا لسنا مرتبطين بأي عمل ببيروت. في ذلك الشريط المسجّل سمعت أميرتي الحبيبة تناشدني زيارتها، وتقرأ لي سوَراً قصيرة من القرآن الكريم، تعلمتها عن ظهر قلب في المدرسة، وتحدثني عن حبّها لأختها الصغيرة، وحبّها للمدرسة، واللغة العربية التي أخذت تلفظ حروفها كلها بطلاقة، فكيف لا نتشوّق للقياهم والاستمتاع بصحبتهم؟ والحق أننا كنا في حاجةٍ إلى تبديل الهواء، وتغيير الإطار الكئيب الذي كنا محصورين ضمنه، فعزمنا على السفر، وبلغنا الرياض في أوائل الشهر الثالث، حيث نعمنا بالجو العائلي الذي افتقدناه، والنوم الهادىء الذي حرمنا منه، والحياة الطبيعية التي أنستنا مذاقها حرب الأيام في لبنان.

أول ما استرعى انتباهي في دار ابنتي قفصان جميلان لأربعة طيور، ضمن كل واحد منها زوج من النوع الذي يسمونه «طيور الحب»، وولع أميرتي بتلك المخلوقات الرائعة في ألوانها وأشكالها وعشقها الجميل. سايرت الطفلة في بادىء الأمر، واستمعت إلى حديثها عن الطيور، وشاهدت عنايتها الفائقة بوضع الطعام والماء لها، وفي نفسي غصّة لم أفصح عنها. أنا مثل أميرتي أحب الطيور، ولكني أرفض أسرها في الأقفاص لأن الطبيعة أعطتها أجنحة للطيران بحرية، ولا يحق لأحد أن يسجنها في قفص تضيق قضبانه عن انطلاقها، وتمنعها من الحياة الطبيعية. إن تغريدها يشيع جواً مفرحاً في البيت، والقبلات التي تتبادلها في النهار تذكّر بالتجاذب بين العشاق، وتعبّر عن حنانٍ وهيامٍ، ورفقٍ وانسجام، بين الذكر والأنثى، يرّق له قلب الإنسان، ولكن قلبي يعتصر حزناً لرؤية الطيور حبيسة في الأقفاص. إن الذين يقدمون على سلب الطيور حريتها أناس أنانيون في رأيي، تتحكم غريزة الامتلاك بمشاعرهم، فتمنعهم من التفكير بضحاياهم التي تحسّ وتتعذب، ولكنها لا تنطق... تذكرت حادثة مماثلة جرت لأولادي الثلاثة في طفولتهم، وذلك يوم أهدى إليهم قريب لنا طيراً صغيراً، ضمن قفص جميل. كان فرحهم بالهدية كبيراً. ولكن الشحرور ألف شحروراً آخر طليقاً، بادله حباً بحب، إذ كان يزوره باستمرار كلما وضعناه في قفصه على الشرفة. وذات يوم طال وقوف الزائر بالقرب من القفص، فدنا منه ابني بهدوء، وأمسكه ثم جمعه بأليفه. لقد أدهشتنا قصة هذا الحب بين الشحرورين وشغلتنا مدة من الزمن، ثم انتهت بإطلاق الأسيرين المتحابين، بموافقة الأولاد الثلاثة ورضاهم. أما فيما يختص بحبيبتي فقد رحت أبحث عن طريقة تقنعها بإطلاق الطيور التي أولعت بها، والتي أمسى وجودها

في البيت متعة كبيرة لها. وجدت أن الحوار الهادىء معها هو أفضل وسيلة، فقلت لها ذات مساء، بعد أن قادتني إلى الشرفة لأشاهد الطيور في حالة نومها، وكل اثنين متعانقين بحنان عناق الأم لطفلها، والحبيب لحبيبه:

ــ إنه منظر رائع يا حبيبتي يدّل على أن للطيور مشاعر مثل مشاعرنا، ولكنني أعتقد أنك لا تحبينها...

فنظرت إليّ بتعجّب وقالت:

ــ من قال لكِ أني لا أحبها يا تيتا؟ إني أحبها كثيراً، وأعتني بها، وأخاف عليها من البرد في الليل، فأدخلها إلى المطبخ.

فقلت لها:

ــ ولكن من يحبّ لا يسجن حبيبه... وأنت ترضين بحبس هذه الطيور البريئة في الأقفاص، وبالتالي بحرمانها من الطيران بحرية حيثما تشاء...

فكّرت حبيبتي لحظةً ثم احتجّت على كلامي بقولها:

ــ أنا لم أحبس هذة الطيور يا تيتا، لقد اشتراها لي بابا يوم العيد، ورأيت مثلها طيوراً كثيرة في بيوت أصحابنا هنا، فمن قال لك إنها ليست سعيدة؟

فأجبتها:

ــ أنا أشعر بأنها ليست سعيدة، وأعلم أنك لست مسؤولة عن حبسها في الأقفاص، ولكن... ولكنك موافقة على هذا الأسر، من غير أن تفكري بأن القفص للطير مثل الحبس للإنسان تماماً، وأن الحبس قد وُجد لمعاقبة الأشرار،

كالسارق والقاتل الخ ... فهل يا تُرى هذه الطيور شريرة؟ هل قتلت أحداً لنعاقبها؟

فكرت حبيبتي هنيهة، وقالت لي وقد غلب عليها الضحك:

ــ طبعاً لا!

فعلّقت بقولي:

ــ قولي لي بصراحة هل تحبين أن نضعك أنتِ في غرفةٍ جميلةٍ مقفلة، ونقدّم لك الطعام والشراب ونمنعكِ من الخروج منها؟

فازداد استغرابها من كلامي وأجابت على الفور:

ــ طبعاً لا أحب، ولكن ما علاقة هذا التشبيه بالطيور؟

فقلت لها:

ــ العلاقة واضحة لأن للطيور أرواحاً مثل أرواحنا، وأحاسيس مثل أحاسيسنا، فلا الإنسان ولا الطير يكونان سعيدين إذا حبسناهما في مكان، ومنعناهما من التنقّل بحرية، لمشاهدة الحدائق والأشجار والسماء، والاجتماع بأصحابهما... وسامحيني إذا قلت لك إنني أحزن عندما أرى الطيور مسجونة في الأقفاص.

فقالت لي حبيبتي وقد بدا عليها التأثر:

ــ سأفكر الليلة، ونرى غداً ماذا نفعل.

وفي صبيحة اليوم التالي اتخذت حبيبتي قراراً حاسماً بفكّ

أسر طيورها، فقد دخلت إلى غرفة الجلوس، وقالت لأمها بحماسة:

ـــ تعالي معي يا ماما لنضع القفصين في الحديقة ونطلق الطيور منهما، لكي تفرح وتتحرّر. إن تيتا لا تحب الأقفاص، ولا أريد أن تزعل مني وتحزن، وأنا أيضاً لا أريد أن أحبس أحداً.

وفي الحديقة فتحت بابيّ القفصين، وقد أثارت حميّتها قصة السجن، فطارت تلك الكائنات الجميلة بعد لحظاتٍ من التردّد، كأنها لم تصدّق أن زمن الأسر ولّى... انطلقت كالسهام في الفضاء الفسيح أمامنا، وشعرنا، ابنتي وأنا، بتأثر الطفلة الحبيبة على فراقها، فقلت لنفسي: تُرى هل سينقضّ عليها طائر مفترس ويلتهمها، أو هل ستجد عشاً يأويها في الأشجار، أو هل سيغتالها صياد ليأكل لحمها الطريّ إشباعاً لغريزة القنص الكامنة في نفسه؟ ومنذ ذلك اليوم أصبحت أميرتي تدرك معنى الحرية وقيمتها، وتلوم الذين يحبسون الطيور في الأقفاص.

حبّ الأرض وحبّ الله

ومن لا يحّب الأرض، ومن لا تنتعش روحه برائحة التراب، ولا سيما بعد هطول المطر، أو بعد رشّه بالماء؟ ألأننا من التراب خُلقنا، وأننا إليه عائدون؟ أو لأنه يحتوي أعيناً ساحرة الإحورار، كما قال الفيلسوف الشاعر عمر الخيام إذ قال:

فكـــم توالى الليـــلُ بعـــدَ النهار
وطـــــــــالَ بالأنجمِ هذا المدار
فامشي الهوينـــــــا إن هذا الثرى
من أعْيُـــنٍ ساحـــرةِ الإحْـــورار

لقد تدرّبت حبيبتي على حبّ الأرض وحبّ الزراعة، في حديقة أبويها بالرياض، بإشراف «الجنيناتي» العم سالم، وإشرافي. خصصنا لها ركناً في الحديقة، وعلمناها كيف تزرع في التراب بذور الذرة والعدس، ففعلت، وباتت تحلم بظهور النبتات الطرية التي ستكبر يوماً بعد يوم، وتحمل العديد من حبوب العدس وعرانيس الذرة. أخذت تروي زرعها بيدها مساء كل يوم، وتتشوّق

لرؤية النتيجة الموعودة، ولا تسل عن فرحتها، يوم ظهرت على وجه الأرض النبتات الخضر الزاهية، حصيلة جهدها وعنايتها! فرحت يومذاك كثيراً، وتباهت بما فعلت، فانتشر الخبر بين الأهل والأصدقاء، وأحسّت حبيبتي بشيء من المسؤولية. أخذت تتفقّد ركنها كل صباح ومساء، وتخاف على زرعها من هبوب النسيم، حتى لكأن حبّها له، واعتزازها به زاد في نموّه بسرعة لم نكن نتوقعها! ولا ريب في أن هذه التجربة علمتها الصبر، وشحنت خيالها بترقّبٍ مشوبٍ بالآمال والأحلام الجميلة، كما أن معجزة الأرض في عطائها السخيّ رسّخت في قلبها حبّ الله والإيمان به، وتقدير نعمه علينا نحن الأحياء، فأضحت أحاديثنا معها تدور حول موضوع الزراعة والحصاد لا في الأرض فحسب، إنما في سائر الأعمال التي نقوم بها، صغاراً وكباراً. كان أكثر ما أذهلها نمّو النبتات يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، نمواً سريعاً، لذا طرحت على العم سالم السؤال التالي:

— قل لي يا عمو متى ازداد طول النبتات وكيف؟ كانت البارحة طول شبرٍ واحد، وها هي اليوم أطول من الأمس، فهل تكبر في الليل عندما ننام؟

أجابها العم سالم فقال:

— كل المزروعات التي نغرسها في الأرض تكبر تدريجياً، ولكننا لا نرى كيف يتمّ نموّها، حتى ولو جلسنا أمامها في النهار، وفي الليل لنراقبها... هذا سرّ إلهي يا بنيّتي.

فسكتت أميرتي وبان عليها أنها لم تفهم ذلك السرّ. كان سؤالها منطقياً ومحرجاً كسائر أسئلتها فقلت لها:

ــ إن ما زرعتِ في الأرض، وكل ما يُزرع فيها يتغذى بالماء والشمس والهواء، والندى الذي ينعشه في الصباح، فيكبر شيئاً فشيئاً، كما يكبر الإنسان. الإنسان يولد طفلاً صغيراً، ويتغذّى بلبن أمه أو «بالحليب» المجفف والماء والطعام والفواكه بعد ذلك، فيكبر تدريجياً من غير أن نرى بأعيننا كيف تمّ ذلك، وفي أي وقتٍ. لقد كنتِ صغيرة الحجم، خفيفة الوزن يوم ولدتكِ أمك، وها أنت اليوم أطول مما كنت في الماضي، وأثقل وزناً، ولسوف تصبحين بطول أمك بعد عشر سنوات، إن شاء الله. لذلك أقول لك أن نمّو البذور التي نزرعها في الأرض، والأزهار والأشجار والنباتات مثل نموّ أجسامنا في طفولتنا، يزداد يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة ببطءٍ، وبشكلٍ خفيٍّ عن أنظارنا، بأمر الله الذي خلقنا.

فقالت لي بعفوية:

ــ من هو الله يا تيتا، وأين هو؟

ففكّرت هنيهةً ثم أجبتها:

ــ الله يا حبيبتي عظيم جداً، فوق كل الناس وكل البلاد. إنه ليس إنساناً مثلنا، إنه قوة عظيمة خلقتنا وخلقت العالم ومن فيه، وهو يرى كل شيءٍ في الأرض وفي السماء، ولا أحد يستطيع أن يراه.

كانت تصغي إليّ بكثير من الانتباه فأضفت:

ــ إن قدرة الله العظيمة تتجلى في النور الذي يشعّ من الشمس والقمر والنجوم، وفي تكوين البحار والجبال والسماوات،

وفي إعطاء الحياة للبشر والحيوانات والأشجار، والله يأمرنا أن نحبه ونحبّ بعضنا بعضاً، وأن نعبده لأنه عظيم وكريم، وطيّب ورحيم. وهو الذي أعطاك أمك وأباك وأختك، كما أنه يأمرنا أن نطيعه ونطيع أبوينا، وأن نرضيه ونرضيهما بأعمالنا الحسنة. إنه موجود في كل مكان يا تيمة، وفي كل شيء: في قلبي وقلبك وقلوب كل الناس، وموجود في العطر الذي يفوح من الزهور والأشجار، وفي العسل الذي يصنعه النحل، ليغذينا ويقوينا. إنه المحبة التي نشعر بها، والجمال الذي نراه، وبعدُ، ماذا أقول لك عن الله؟ إنه يراقبنا، ويحبّ أن نقول كلاماً طيباً، وأن نحبّ الناس، كل الناس، والحياة، ويريد أن نشكره على كل ما أعطانا، وما يعطينا من نعمٍ وخيراتٍ وهدايا!

أصغت إليّ حبيبتي النابهة باهتمام فشعرتُ بأنها دُهشت لما سمعت، وأنها أحسّت بهيبة الله وعظمته، وإن لم تكن أدركت، كل الإدراك، سائر معاني هذا الوصف المطّول. لقد سرح خيالها بعيداً، وبعد لحظات قالت لي بحزم:
ــ أنا أحبّ الله يا تيتا، وأريد أن يحبني.

فأجبتها على الفور:
ــ عفاك يا حلوتي! تأكّدي أنه يحبك لأنك بنت طيبة، ولأنه استجاب لدعائك، وأهدى إليك أختاً لطيفةً، حلوة، وأعطاك أماً وأباً طيبين وكريمين، كما أعطاك عقلاً نيّراً، وذكاءً وجمالاً، أليس كذلك؟

فقالت وقد تهلّل وجهها بالبشر:

ـ صحيح! وأنا «فرحانة» بأختي، ولكني أريد من الله أن يعطيني أخوة كثيرين، فماذا أقول له؟

فتبسمت وقلت لها:

ـ إسألي أمك وأباك أولاً إذا كانا يريدان في هذا البيت جيشاً من الأولاد، فإن كثرة الأولاد مسؤولية كبيرة عليهما، وتعبٌ كبير من كل النواحي...

فتوجّهت مسرعةً إلى حيث كانت أمها تستوضح الأمر، لأن الحديث عن المسؤولية والتعب بسبب الأولاد قد بدا لها غريباً، نابياً، فسمعتُ أمها تضحك وتقول لها:

ـ سنسأل بابا عن رأيه، هيا بدّلي ثيابك الآن لأننا مدعوون إلى الغداء عند أهل رفيقتك سناء.

الخوف من الظلام

كانت حبيبتي تخاف من الظلمة، ولا تنام إلا على ضوء نورٍ خفيفٍ في غرفتها، كما كانت تحبّ السهر معنا. ولكن أمها عوّدتها نظاماً صارماً، كما تعوّدت هي في طفولتها، يقتضي الخلود إلى النوم في وقتٍ مبكر، لأن النوم للطفل غذاءٌ له، لا يقل أهمية عن تغذيته بالطعام والحنان. أما الآباء الذين يتساهلون مع أولادهم في هذا الأمر، ويَدَعَونهم يسهرون معهم، أو يصحبونهم في زياراتٍ ليلية، فإنهم يظلمونهم، ويظلمون أنفسهم والناس في الوقت ذاته. وقد شاركتُ حبيبتي في غرفة نومها إبان زيارتي لوالديها في الرياض، وأرقت كلَّ ليلةٍ، بسبب الضوء الخافت فيها الذي تحرص عليه طول الليل، فما العمل؟ تحدثت معها عن هذا الموضوع لإقناعها بإطفاء النور قبل النوم، ولكنني لم أُوفّق. وذات ليلة انقطع التيار الكهربائي قبل أن ننام فأشعلنا شموعاً في البيت، ووضعنا إحداها في غرفتها، ولما دخلت لأقبّلها قلت لها بشيءٍ من التأفّف:

ــ أتحبين رائحة الشمع يا «تيمة»؟

فهمت الطفلة اللبيبة قصدي فقالت:

ـــ لماذا أنت لا تحبينها يا تيتا؟ أنا لا أتضايق منها...

فقلت:

ـــ أخشى أن تقع الشمعة وأنت نائمة وحدك، ونحن ساهرون، فتُحدث حريقاً في الغرفة، لا سمح الله...

بدا الخوف من كلمة الحريق على وجهها الملائكي في الحال، وقالت لي بتوسّل:

ـــ أطفئيها يا تيتا إذن، ولكن إبقي عندي حتى أغفو، أرجوك.

فانتهزت الفرصة السانحة وقلت لها:

ـــ أنا باقية عندك حتى تنامي، سأتمدّد على سريري وأحلم ولكن أريد أن أطلب منك شيئاً فهل تلبّين طلبي؟

قالت:

ـــ نعم يا تيتا...

قلت:

ـــ أغمضي عينيك الآن وفكّري بالشمس والقمر والنجوم تَرَيْ نورها في خيالك...

قالت بعد أن أغمضت عينيها لحظةً:

ـــ لم أر شيئاً يا تيتا...

قلت:

ـــ أغمضيها مرةً ثانية، مدةً أطول من الأولى، وفكري جيداً بأملكِ وأبيكِ ولعبتك، ثم بيوم غدٍ وبالمدرسة والمعلمة والرفيقات، وبالحديقة والأزهار، والمزروعات التي زرعتها

فيها، وصلّي في قلبك، ترى نوراً داخلياً جميلاً ينسيك نور الشمعة والكهرباء، فيحملك النوم إلى عالم النجوم والأحلام الحلوة! هيّا جرّبي مثلي...

أعجبتها الفكرة لأنها جديدة، فأغمضت عينيها بضع دقائق ثمّ فتحتها وقالت لي:

— فكّرت بصديقتي «شيرين» ومعلمتي، والشمس غداً، ولكنني لم أر النجوم، ولم أنعس بعد...

فقلت لها:

— إذا لم تفتحي عينيك لتتحدثي معي سوف يحملك النعاس، وتنامين بعد قليل، كما أنام أنا، وينام جدُّك وأبواك، وكل الكبار دون أي ضوءٍ في غرف نومهم. كل ما أطلبه منك يا حبيبتي أن تعرفي أن النور ليس فقط في ضوء الشمعة أو «لمبة» الكهرباء، إنه في قلوبنا وعقولنا، عندما نفكّر، وعندما نستعدّ للنوم، وعندما نستيقظ ونقرأ ونتعلم ونتحدّث. فهل أصبحتِ بنتاً واعية مثل الكبار، منوّرة القلب والفكر والأحلام، أم ما زالت «تيمة» الصغيرة التي لا تفهم ما تقول لها جدّتها التي تحبّها؟

فقالت لي بحماسة:

— صرت كبيرة يا تيتا، وأعرف كيف أكتب وأقرأ مثلك، ولكن أريد أن أسألك لماذا أنتِ تقرئين دائماً؟

فأجبتها:

— لكي يتنوّر عقلي وقلبي... القراءة يا حبيبتي تسليني وتعلمني، كما تسليكِ وتعلمك، وهي تفتح لنا أبواب كنوزٍ،

لا يكتشفها إلا الذين يقرؤون، كما أنها تهدينا إلى دروب الحياة والنجاح فيها. أما الذين لا يقرؤون ولا يتعلمون فإنهم يمشون في الظلام، كان الله في عونهم...

لحظت أن النعاس شرع بمداعبة أجفانها، وأن الشرح الطويل الذي عرضته لم يرق لها، فقبّلتها وأطفأت الشمعة، وخرجت من الغرفة. انسحبت منها بهدوء وأنا أفكر في النور والظلام، وساءلت نفسي: «ترى هل شوّشتُ حبيبتي بما قلت لها أو أنني حسناً فعلت؟» ثم رأيت أنني لم أكن مخطئة، لأن الطفل النبيه يستوعب ما يسمع من ذويه ومربّيه، ويتأثّر به ويهضمه، فإن كانوا جادّين معه، مال هو إلى الجّد، وإن درّبوه على التأمّل والتفكير جنح إليهما، وأضحى رصيناً في تصرفاته، وإن خاطبوه بلغةٍ صحيحةٍ اقتبسها وشبّ على النطق بها. إنه عجينة ليّنة بين أيديهم، تحركها عقولهم وأذواقهم، فتأخذ الشكل الذي يرغبون فيه، فإذا وضعوها في قالب جميل تنصهر فيه، وتصبح بهجةً للأنظار! وكان دعائي في تلك الليلة عقب صلاتي هو التالي: «اللهمّ نوّر عقولنا وقلوبنا بالعلم والإيمان والحبّ، واحسر الظلمة عن أرواحنا ونفوسنا، ونجّنا منها في حياتنا، وبعد مماتنا يا ربّ!».

أميرتي لا تحب اسمها

انقضى شهران على وجودنا في الرياض، فدنا وقت الرجوع إلى بيروت، وحبيبتي تذهب بانتظام إلى مدرستها، وتبدي شغفاً بالعلم والمطالعة، يبهج القلب. لقد آمنت بأن العلم الذي تتلقاه، وقراءة كتب الأطفال يضفيان على وجهها وشخصيتها نوراً ساطعاً!! كان أجمل ما سمعناه منها السؤال التالي:

— إن صديقتي «شيرين» شاطرة مثلي في المدرسة، والآنسة سعاد معلمتنا تحبنا، وتقول إننا أحسن تلميذتين في صفّها، وشيرين وجهها أبيض من وجهي لأنها شقراء، فهل سأصبح مثلها؟

فأجابها كل واحدٍ منا الجواب الذي يرضيها ويبهجها، إذ قال لها جدّها:

— لا أظن أن شيرين أجمل منك يا حبيبتي، أما لون بشرتك فإنه يزداد ضياءً يوماً بعد يوم.

وقالت لها أمها:

ــ شيرين شقراء حلوة ، وأنت جميلة جداً لأن عينيك زرقاوان وشعرك أسود ، وهذا نادر في الفتيات ، ألا يعجبك شكلك ؟ . . .

فتبسّمت بغنج ، واتجهت إلى غرفتها لاستشارة المرآة . . . كان لحبيبتي جلساتٌ طويلة مع المرآة ، منذ بلوغها عامها الثالث ، وما أعذب رؤية نموّ الأنوثة في البنات الصغيرات الجميلات ، فهي تنمو مع نموّ أجسامهن وملكاتهن ، وقد تجلّت في حبيبتي بعنايتها الفائقة بنظافتها وزينتها ، وفي جلساتها الطويلة مع مرآتها ، بعيداً عن أعين الرقباء . . . كثيراً ما راقبتها من غير أن تراني وهي تتأمل نفسها في مرآتها ، وتمشّط شعرها ، وتتفّنن بإعطائه أجمل شكلٍ يناسب ذوقها ، ثم تضع عليه شريطاً بلون ثوبها ، أو عقدةً مصنوعة منه ، تارةً على الجانب الأيمن ، وأخرى على الأيسر . ثم كانت تقف بعد ذلك لتحكم على هيأتها الكاملة فتغيّر « التنورة » أو « البلوز » بما يتناسب مع « الكلسات » والحذاء . . . ولما طرحت عليّ السؤال المعهود عن لون بشرتها قلت لها :
ــ أنظري بنفسك إلى المرآة ترين أن لون بشرتك يزداد بياضاً كلما نلت علاماتٍ جيدة في دروسك ، أولاً تلاحظين مثلي أن في جبينك نوراً قوياً ؟ إنه واضح وضوح الشمس يا عصمة !

أعجبها جوابي كثيراً ، ولكن مناداتها باسمها الحقيقي لم ترق لها ، فسألتني :
ــ لماذا اسمي « عصمة » يا تيتا ؟ أنا لا أحب هذا الاسم ، يا ليته كان « شيرين » أو « سوسن » أو « فادية » أو « لينة » . . .

ذكرت آنفاً أنها لم تكن راضية عن اسمها منذ بلوغها العام الثاني، وأنها ابتدعت لنفسها اسم «تيمة» فكنا نناديها به حيناً، وباسمها الأصلي مصغراً «عصومة» أحياناً أخرى، ولكنها تسجلت في المدرسة باسمها، واشتُهرت به بين المعلمات والرفيقات، فأجبتها:

ـــ من قال لك يا حبيبتي إن اسمك ليس جميلاً؟ إنه اسم جميل اللفظ والمعنى، ولائق بك، واللواتي يحملنه قليلات وجميلات، مثل جدتك لأبيك التي سُمّيتِ باسمها، لأنك أول حفيدةٍ لها.

فسألت:

ـــ وما معناه يا تيتا؟

فأجبت:

ـــ العصمة يا حبيبتي هي صفة عظيمة تعني الأخلاق الطيبة، لأن صاحبها يجتنب المعاصي، أي كل عملٍ ممنوعٍ يغضب الله، كالكذب والسرقة الخ... فكوني سعيدة باسمك، وإياكِ أن تصدّقي من يقول لك إنه غير جميل... كوني يا حبيبتي أجمل عصمة، وأعذب عصمة، وأذكى عصمة، ولا تفكري أبداً بتغييره، لأن تغيير الاسم شيء مستهجن، وإذا سألك أحد عن معناه، قولي له باعتزاز: اسمي يعني: النزاهة، والعفة والطيبة والإباء.

وبما أنني كنت أكتب اسم أميرتي بالتاء المربوطة لا بالتاء الممدودة، جرياً على العادة الدارجة في بلادنا، المقتبسة من الأسماء

التركية أمثال : حكمت وثروت وبهجت الخ ... أضفت أقول لها ، وقد ارتاحت لحديثي :

ــ ينبغي أن تعرفي أيضاً أن اسمك عربي وتركي ، يُكتب بلغتنا الجميلة بتاءٍ مربوطة في آخره ، وأن معناه في اللغتين واحد .

وهكذا اقتنعت أميرتي بأن اسمها جميل المعنى ، لطيف اللفظ ، وبأنه سيصبح أجمل إذا أصبحت ذات شخصية واثقة بنفسها ، متميّزة بعلمها وأناقتها وتصرفاتها اللائقة ، لأن الاسم يتأثر بالمسمّى . ومنذ ذلك اليوم بتنا نناديها به ، وتناسينا الاسم الذي اخترعته لنفسها سابقاً .

النقـود والجنـة

لم يدم فراقنا طويلاً بعد الرجوع إلى بيروت من الرياض إذ تمّ لنا لقاء جديد في باريس حيث استأجرت ابنتي وزوجها شقة لقضاء الصيف فيها مع الطفلتين. ولقد سافرت من لبنان لزيارتهم في شهر أيلول، وأنا مرهقة الأعصاب، بسبب مرض ابنتي الثانية المفاجىء، في شهر آب، واضطرارنا لنقلها من دمشق إلى مستشفى التوليد ببيروت، وهي تنزف بشكل خطير في شهر حملها الرابع. لقد قضيتُ أياماً عصيبة معها في ذلك المستشفى، وهي تصارع الموت أمام عينيّ، ولكن الله رأف بنا، إذ تمّ إنقاذها بعد أن أجرى لها الطبيب المولّد عملية إجهاض دقيقة. عندما استردّت عافيتها رجعت إلى دمشق مع زوجها في يوم حارٍّ حمي فيه وطيس الحرب بين الفئات المتنازعة، فدارت رحاها من جديد في الشوارع وبين البيوت، بعد هدوءٍ استمّر أسبوعين، نسينا خلالهما أننا في حالة حرب. ومن عجائب تلك الحرب في لبنان بقاء مطار بيروت مفتوحاً أمام الملاحة الجوية، لذا تمكنتُ من السفر وبلغت باريس وأنا لا أصدق أنني صرت قادرة على النوم براحة، والتجّول

بأمان ، ومشاهدة الناس يعيشون حياة طبيعية . كانت أمتع الأوقات تلك التي صحبت فيها أميرتي الحبيبة إلى ملاعب الأطفال في الحدائق العامة ، ومن أشهرها حديقة النباتات ، بالقرب من غابة بولونيا . لقد زرت معها مختلف الأقسام ، ولعبت معها ، ولن أنسى كم ضحكنا في أثناء تجوّلنا في جناح المرايا المكعّبة والمستطيلة التي تعكس صور الناس بأشكالٍ غريبةٍ مثيرةٍ للضحك . كان لرنات الضحك المنبعثة من حنجرتها وحناجر عشرات الأطفال من حولنا وقع ساحر في نفسي ، أزال عنها الهموم ، ونقلها إلى رياضٍ سماوية تحرسها الملائكة ، وتغرّد فيها الأطيار !

ثم قمت بجولةٍ معها على معالم باريس الشهيرة ومنها قوس النصر وبرج إيفيل . كان إعجابها بهما ، واهتمامها بالشرح الذي كنا نسمعه من الدليل كبيراً لأنها أضحت تتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة . لقد أعجبها منظر مدينة النور عندما أشرفنا عليها من علٍّ ، ونحن على سطح قوس النصر ، وأدهشتها رؤية السيارات المنطلقة ذهاباً وإياباً ، حول تلك الساحة الكبيرة ، وفي الشوارع الضخمة المتفرعة منها . وما زلت أذكر اعتداد أميرتي بنفسها حين قال لي شرطي ، حين سمعها تسألني بالفرنسية عن اسم الذي بنى قوس النصر :

ـــ إن هذه الفتاة الجميلة تتكلم لغتنا دون لكنه ، فمن أي البلاد أنتم ؟

فأجبته :

ـــ من سورية ولبنان يا سيد ، شكراً على مديحك ، فهي تتعلم الفرنسية في مدرستها ببلادنا ، وتتعلم الانكليزية أيضاً .

وعلى ذكر الأدلّاء السياحيين أذكر أنها كانت دليلي المفضل في الحيّ الذي قضوا فيه ذلك الصيف ، فكنا نخرج معاً لشراء الخبز وجريدة الصباح ، ثم نمشي قليلاً ، وندخل إلى المقهى حيث أشرب قهوتي ، وتشرب هي كأساً من عصير الفاكهة . وفي باريس احتفلنا بعيد ميلاد أختها « عزة » الثاني ، فأشرفت على إعداد المائدة ، وطلبت مني أن أشتري لعزة هدية باسمها . يبدو أن أمها سمعتها تطلب مني ذلك فنادتها إلى غرفتها ، وأعطتها مبلغاً من النقود لكي تدفع هي ثمن هديتها لأختها الصغيرة ، فكان لا بد من حديث مطوّل بيني وبينها عن النقود وأهميتها في التعامل . توجّهت معها إلى محلٍّ للألعاب قريب من البيت ، فانتقت دمية لأختها ، ولما سألنا عن سعرها وجدنا أنه ينقص عشر فرنكات عما أعطتها أمها ، فابتعناها وعدنا بها إلى البيت ، واحتفظت أميرتي بالمبلغ الباقي ، ولكن وجوده معها شغل أفكارها في ذلك اليوم ، وفي الأيام التالية ، انشغالاً كبيراً أقلقها وحيّرها . عشر فرنكات في جيبها ماذا تساوي ؟ هل تصلح لشراء لعبة ؟ وكيف السبيل للحصول على مزيدٍ من النقود ؟ هل تطلب من أبيها ما نسمّيه « خرجية » ؟ أو من أمها ؟ بدأت تستوضح عن قيمة العملة ، وتحلم باقتناء مبلغ تضعه في جيبها ، وتذهب معنا إلى السوق لشراء ما تشتهي . فاستجاب والدها لطلبها ، وشعرت هي بسعادة كبرى عندما أهديت إليها محفظة لوضع الأوراق المالية فيها ، ثم شعرت بقوةٍ ، وبدأت تحسب وتفكر إلى أن دخلنا مركزاً تجارياً كبيراً . تجوّلنا في أنحائه ، والفتاة تقف عند الواجهات ، وتفكر بثروتها الصغيرة : إنها تحب الكتب ، ولكن الكتب المصورة الجميلة باهظة الثمن ، وتشتهي شراء ثوبٍ لونه أزرق ، ولكن ميزانيتها لا تسمح لها بشرائه ، وفي نهاية المطاف ، وبعد أن أكّدت لها أن أباها سيبتاع لها قصصاً مصورة ، وأن أمها

ستشتري لها الثوب الذي أحبته، دخلنا مخزن الألعاب، واشترت دمية جميلة شقراء، شعرها طويل، وثيابها أنيقة، اسمها «باربي». كانت سعيدة بها، ومزهوّة بأنها دفعت ثمنها مما كانت تملك من المال، ولكن... ولكن «لباربي» في محلات الألعاب مجموعة من الأزياء المتنوعة ينبغي شراؤها فيما بعد، فتمّ الاتفاق بينها وبين والديها على أن تجمع المبلغ الأسبوعي الذي ستناله منهما، لتشتري ثياباً لدميتها «باربي». حقاً إن المال يطرد الطفل من جنته بمجرّد أن يكتشفه ويقتنيه، ولا ريب في أن للنقود فعل السحر لدى الناس جميعاً، كباراً وصغاراً، وأنها تشغل البال، وتزيد الهموم، وتشقي بقدر ما تسعد. المال قوة، ولكن قوة براءة الأطفال أعظم من قوته، والمال زينة، كما يقولون، ولكن العقل، وجمال الطفولة أجمل زينة، كما أنه شهوة خطيرة، إذا ما سيطرت على أحدٍ جرّته إلى هوّة الطمع، والأثرة والحرص، إن لم نقل البخل، في حين أن الطفولة صفاء وعطاء وكرم، ينبغي أن نبعدها عن مشكلاته قدر المستطاع. منذ ذلك الحين شرعت أميرتي بادّخار «خرجيتها»، وأخذت تجمع وتطرح، وتفكّر بشراء هدية لأمها يوم عيد ميلادها، وأدوات زينة لها من أمشاطٍ، وأساور، وحلق الخ... وقد سرّني كثيراً تقبّلها لحديثٍ جرى بيننا حول النقود، عن حقّ السائل والمحروم في جزءٍ بسيطٍ مما نملك في حياتنا.

بعد سفر الحبيبة إلى الرياض مع والديها وأختها، رجعت إلى بيروت على أمل لقائهم فيها، قبل حلول السنة المقبلة، إذا كانت الحالة الأمنية تشجّعهم على المجيء. وفي الخريف انتقلنا، زوجي وأنا، من الشقة التي كنا نقيم فيها برأس بيروت إلى شقةٍ أخرى قريبةٍ من الجامعة الأميركية، يوجد فيها مولّد للكهرباء يسمح لنا

بإشعال النور ليلاً، وإن كان ضئيلاً، وبركوب المصعد لبلوغها، ويؤمّن الماء فيها. لقد استغنينا عن شقّتنا السابقة لوقوعها في الطابق الحادي عشر، من بناءٍ يفتقر إلى مولّد كهربائي، حيث كنا نضطرّ لتسلّق السلالم الطويلة، ونبقى دون ماء.

وأخيراً اجتمع شمل أسرتنا بكامل أعضائها في بيروت قبل عيد الميلاد، فأنسانا وجود إبني وابنتيّ وأولادهم حالة الحرب ومشكلاتها، وكأن المتحاربين رأفوا بنا إذ هدأت المناوشات بينهم آنذاك كلياً. كانت أمتع الأمسيات تلك التي كان الأحفاد فيها يشتركون معنا في الحديث وفي الألعاب الترفيهية، ومنها لعبة: «الزاي عروستي» وهي تتلخّص بأن يخرج أحدنا من الغرفة ويتّفق الباقون فيها على شخصٍ أو بلدٍ أو حيوانٍ فيعود الذي خرج ليسأل الحاضرين، كلّ واحدٍ بدوره: «الزاي عروستي؟» فيجيبه بإعطائه صفة من صفات ما تمّ الاتفاق عليه. يستطيع السائل أن يعيد الكّرة بأسئلته عن أوصاف الشيء، أو الشخص المضمر، إلى أن يكتشف الشخصية، أو الشيء المتفق عليه. إنها تسلية مفيدة للكبار والصغار على السواء، تجلو الطباع، ومقدار الانتباه والذكاء، وترغّب بالتفكير، وتلذّ كثيراً للأولاد، فيتبارون ليروا أيّهم أكثر حذقاً في معرفة الشيء المضمر، ويتباهون بنجاحهم، ويمرحون مع أهليهم، ويضحكون.

أعياد الرعب وهجرة الربيع

تصادف عيد رأس السنة الجديدة، سنة ١٩٨٠، مع عيد الأضحى المبارك، فقضينا سهرة عائلية في البيت مع الأحفاد، الذين أووا إلى أسرّتهم حوالي العاشرة ليلاً. كل شيء في بيروت كان صامتاً، الشوارع مقفرة من الناس والسيارات، والحانات أكثرها مقفل، وأكثر العائلات مجتمعة في بيوتها، وقد ساد شعور عام بأن الفتنة وشيكة الإنطفاء في إثر هدنةٍ دامت بضعة أسابيع. ولما دقّت الساعة معلنةً منتصف الليل دوّى الرصاص في المدينة فجأةً، بشكل جنونيّ ألقى الرُّعْب في النفوس، وخيّب الظنون بالفرج. وليس بمستغرب أن يصحو الأطفال النيام مذعورين، فقد هرعوا إلى أحضان أمهاتهم ونحن لا ندري ماذا نقول لهم، وبم نفكر... رباه لماذا هبّت نار الجحيم هكذا، مجدداً، دون سابق إنذار؟ نشرة الأخبار المسائية، سواء في الراديو أو على شاشة التلفزيون، لم تنبىء بأي توتّر أمني، ولا حتى بأي تأزّم على الساحة السياسية، فماذا جرى لكي تفتح البنادق أفواهها، وتغتال نوم

الأطفال، وراحة السكان الآمنين؟ واستمر إطلاق الرصاص، من البنادق والرشاشات، زهاء ربع ساعةٍ، في مختلف أحياء بيروت الغربية، حسبما فهمنا من أقرباء لنا، يقطنون في كورنيش المزرعة، بعد أن اتصلنا بهم هاتفياً. كما فهمنا منهم أن إطلاق النار كان احتفالاً بقدوم عيد الأضحى يوم غدٍ، نعم كان احتفالاً بنزول الحجاج من جبل عرفات، وابتهاجاً بعيدٍ دينيّ كبير! ما العمل والرصاص وحده أضحى وسيلة التعبير عن الفرح بعد أن أُلغيت تعابير الابتهاج من وجوه حملة الأسلحة، ورؤساء أحزابهم، والناس في بيروت المنكوبة!!! وكيف لا يذُهل المواطن، وكيف لا يحزن، ولا يشمئز مما آلت إليه الأمور في بلده الذي كان لؤلؤة بلاد الشرق، وملجأ عشاق الجمال والحرية والازدهار والأنس؟ ألا ويلٌ لمؤجّجي الفتنة، وتجار الحرب الذين ضلّلوا جيلاً من الشباب في لبنان، وأفقدوهم عقولهم ومشاعرهم الإنسانية، وأغروهم باستعمال السلاح واللعب بالرصاص في كل وقتٍ ومناسبة، حتى لدى حلول الأعياد! أذكر أننا لم نعترض على قرار أولادنا بقطع زيارتهم لنا، والرجوع، كلٌّ واحدٍ منهم إلى البلد الذي يقيم فيه، بأسرع وقتٍ ممكن، إذ لا أحد يدري متى يندلع القتال مجدداً، ويمنعهم من التجوّل والسفر. لقد رحلوا، وقضينا الشهر الأول من السنة على مضضٍ، ننام ونصحو على حذرٍ، بعد أن فقدنا الثقة بالخروج من الأزمة السياسية والأمنية المستعصية، وشعرنا بغليانٍ مستترٍ، كما تُشتم رائحة الحريق من أشرطة كهربائية ملتهبة. وفي الشهر الثاني توجهنا إلى دمشق، فسلكنا طريق «عرمون» المعهودة التي ازدادت سوءاً لكثرة ما سارت عليها الحافلات والدبابات، وما أشبهها بالوضع السياسي في لبنان: حفرٌ ومطبّات، مزالق وانهيارات، ومخاطر جسيمة تحفّ بالسيارات وركابها، حتى بلوغ سهل البقاع.

وفي كل مرةٍ كنا نذهب إلى دمشق ونعود منها إلى بيروت على هذه الطريق الوحيدة السالكة، كنا نشعر بأنه كُتب لنا عمرٌ جديد، ونحمد الله على السلامة والنجاة...

لقد اشتُهر لبنان جبلاً وساحلاً بروعة ربيعه، وعبق زهوره وجمالها، وتنّوع أعشابه وأشجاره، ولكن ربيع تلك السنة هلّ عابساً، حزيناً، كئيباً، ومع ذلك انتهزت ابنتي الكبيرة فرصة استتباب الأمن في شهر نيسان، وأتت إلى بيروت مع ابنتيها لزيارتنا، وزيارة أهل زوجها، وتفقّد شقتها فيها. ينبغي ألا أنكر بأننا اختلسنا من عاديات الزمان أسبوعين، قضيناهما براحةٍ وهناء، بفضل وجودهن معنا: كانت أميرتي وأختها الصغيرة فرحة الدنيا في نظرنا، والربيع الحقيقي الذي أنعش نفوسنا، وكان لقبلاتي لهما لدى وصولهما إلى المطار طعم النشوة، ونكهة الشمس، وعبير الياسمين. ولم يعكّر صفونا إبان وجودهما معنا سوى ما أصاب أميرتي من صدمةٍ نفسية، يوم أتى اللحام إلى البناية التي نقطن فيها مع خروف سمين، كنت قد أوصيته بشرائه، لكي ينحره ويقطّعه لنوزّعه على الفقراء. لقد كانت عندي آنذاك، فنزلت معي إلى حديقةٍ صغيرةٍ واقعةٍ في المدخل، وشاهدت نحر الخروف وتقطيعه فكاد أن يغمى عليها لو لم أكن إلى جانبها أقوّي قلبها، وأشرح لها قصة الفدية، وكيف أن الله حلّل لنا أكل اللحوم. ولقد ظلّ مشهد الخروف المذبوح، ودمه السائل عالقاً في ذهنها بضعة أيامٍ، امتنعت خلالها عن أكل اللحم حتى ولو كان مفروماً قطعاً صغيرة تكاد لا تُرى بين الخضار المطبوخة. نقلتني الذاكرة يومئذٍ إلى سنواتٍ خلت، حين كنت أقيم في عاصمة الأرجنتين مع زوجي الذي كان سفيراً لسورية فيها، إذ اعتراني ما اعترى أميرتي من

انزعاج، ونفورٍ من أكل اللحوم، يوم دُعينا لزيارة مصنعٍ كبيرٍ لتعبئتها وتصديرها. أذكر أن جولتنا فيه استمرّت ساعةً كاملة، وأنها بدأت بزيارة المسلخ فشاهدنا كيف كانت تساق أفواج الخنازير والأبقار والنعاج إلى ممرٍّ مسوّرٍ في قاعة كبيرة يصطف فيها الجزارون، فيطرقون كلّ حيوان بدوره على رأسه، ليفقد صوابه، وينحرونه... ثم توجهنا إلى أقسام المصنع الأخرى فرأينا عمليات الفرز، وفصل اللحوم عن العظام، ثم تقطيعها، وفرمها، وتدخينها، وأخيراً تجهيزها للتصدير. لقد أنفت رؤية اللحوم، وشمّ رائحتها وأكلها بعد ذلك اليوم، وأصابني ألم في المعدة لازمني فترةً طويلة.

قلت إن الربيع هاجر من لبنان بسرعة بعد أن أطلّ علينا، وليس هذا بمستغرب، لأن الربيع رسول فرح وابتسام، ولبنان في مأتم وشقاء فأنّى للربيع أن يطرق أبواب الحزانى؟ لقد فاحت روائح تخمّر النفايات المتراكمة في شوارع بيروت، بدلاً من أن تفوح رائحة الأزهار والنظافة، فكنا نسدّ أنوفنا في أثناء تجوّلنا، ونحوّل أنظارنا عن الأخربة الموحية بالعدم والفناء. لو أصاب بيروت زلزال دمّر الأبنية القديمة، ذات الطابع اللبناني الجميل بشرفاتها وقرميدها وحدائقها، وشوّه العمارات الجديدة، وقصف الأشجار في الشوارع لهان الأمر علينا، وخضعنا للقضاء والقدر، ولكن ما يؤلم ويحزن أشدّ الألم والحزن، أن هذا الدمار الذي لحق بلبنان جريمة دنيئة خطّط لها أعداؤه من الخارج، ونفّذوها بمساعدة اللاوعي من الداخل، فاشتعلت نيران الفتنة بين المواطنين الأخوة، وخدموا مصالح المتربّصين بهم. لقد كان لبنان شوكةً في حلق الحاقدين على رغده، ولكنه بلد صامدٌ صمودَ صخور جباله، ولا بد من أن يستيقظ ويتغلّب على الفتنة في نهاية المطاف. إن ما يدعو للتفاؤل

في المستقبل هو سير الأعمال التجارية ، والحركة العمرانية فيه ، على الرغم من استمرار الحرب ، ومن يرى المتاجر والمؤسسات على أنواعها تفتح أبوابها ، وتستأنف أعمالها ، عقب كل انفجارٍ وكل معركة ، ويشاهد نشوء أبنية جديدة بين الأبنية المتضرّرة ، يُعجب بالشعب اللبناني الطموح الذي يتحدى عاديات الزمان بشجاعته وحبّه الحياة .

هجـرة ثانيـة

مع مطلع ذلك الصيف نزح عن بيروت عدد كبير من عمار الديار، عرباً وأجانب، فسلبوا الطمأنينة من قلوبنا بنزوحهم، مما حرّضنا على النزوح بدورنا، فاستأجرت أختي التي تقيم في جنيف شقةً مفروشةً لنا، وشقةً أخرى لأميرتي وأهلها، واجتمع شملنا مجدداً في الشهر السابع. كنت أنظر إلى ما حولي من نظافةٍ ونظام، وأمن وجمال، ولا أصدق عينيّ. أجول في المدينة، وأسير على ضفاف البحيرة فأتنفّس بعمق، وأغبط الناس الذين يعيشون في كنف السلم والأمن والجمال. استضفت في ذلك الصيف حفيدي «ميمو» الذي أتى من دمشق مع أختي الثانية لميس وزوجها، وأدخلته مدرسة قريبة من شقتنا لمدة شهرٍ، ثم لحق به أبواه وأخوه الأصغر. اجتماع شمل عائلتنا في سويسرا آنئذٍ أسعدنا كثيراً، ولم ينغّصنا سوى بقاء إبني البكر وزوجه وأولاده في لبنان، لاضطراره للإشراف على عمله.

كان رفيقاي في جنيف وضواحيها، وفي النزهات وزيارة

المعارض والمتاحف، أميرتي التي استقبلت عامها السابع، وحفيدي «ميمو» أليفها، الذي يكبرها بسنةٍ وتسعة أشهر. لقد استرددت عافيتي بفضلهما، وتابعت نموّ الشخصيتين الرائعتين بفرح عارمٍ، فبتّ أنظر إلى ما حولي من فتنةٍ وجمالٍ، عبر عيونهما المتفتحة لإدراك الفتنة والجمال، حيثما تجليا. كنت سعيدةً بانتهاء زمن الفراق والحرمان، لا همّ يشوّش أيامي سوى انشغال فكري عند لبنان ومن فيه، ولا انفجار أو هدير رصاص يحرمني من النوم الطبيعي. ولكن ما أسرع دوران عقارب الساعة في صحبة من نحبّ! كانت الأيام تنقضي مثل لمح البصر، وكذلك الأسابيع، فحان وقت الفراق مجدداً، وعدنا كلٌّ منا إلى بيته في الشرق العربي، ومعي زادٌ دسم من الذكريات التي كانت المعين الأفضل على احتمال الشدائد التي كانت تنتظرني في لبنان، ومن أعذبها مشاهدة أميرتي وابن خالتها في تلك الأيام يتمازحان، أو يتناقشان، ويسألانني عما يشاهدان متحمّسين لكل جديدٍ، فرحين بوجودهما معاً، ومبتهجين بالأسفار والسياحة. كيف لا والأطفال أكثر الناس غبطةٍ بالتنقّل والاطلاع؟ إن لهم أرواحاً تواقة لرؤية أطرٍ جديدة تروّح عن أنفسهم، وتجلو عنها الرتابة والسأم، مثل أرواح الكبار في السن التي تتغذى بالأسفار، وتتوق إلى التغيير.

عدت إلى بيروت إذن وأنا أمنّي النفس بلقاءات قريبة مع حبيبتي وأولادي وأحفادي، فنحن الأمهات والجدات العاطفيات لا يسعدنا شيء أكثر من القرب من أولادنا وأحفادنا لأن هناءنا يكمن في التنعّم بالروابط العائلية، ولا سيما بعد أن نتجاوز الخمسين من العمر. وإذا ما عشقت إحدانا أحفادها يصيبها ما يصيب العشاق المتيّمين، فيضطرم الشوق إليهم في قلبها، على

البعد، وعلى القرب معاً. كان وجود إبني وأولاده بالقرب مني في لبنان، وكانت زيارات ابنتي الثانية إلينا فيه، من وقتٍ إلى آخر لقرب دمشق من بيروت، مورد هناء دون شك، ولكنه هناء مشوب بالغصات، بسبب بُعد فرعي الآخر القاطن في الرياض، فأنا شجرة ذات ثلاثة أغصان، لا يطيب لها العيش بإقصاء أحدها عنها، كما أن أحفادي هم رياحين الروح التي تنعشها، وأي انتعاش!

في ١٩٨٠/١١/٦ قضينا ليلة لاهبة في بيروت بسبب شجارٍ عنيف بين الأحزاب السياسية المسلحة الموجودة على الخط الفاصل بين شطريّ العاصمة: الشرقي والغربي! أجل لقد روّعنا هذا التقسيم المفروض على بيروت إذ أضحى الحديث عنه على كل شفةٍ ولسان، وما من حريص على وحدة لبنان، والتعايش السلمي بين اللبنانيين على مختلف طوائفهم إلا ويتأذى من هذا الحديث، ويحسب لعواقب التقسيم ألف حساب.

نعمنا بفترة هدوءٍ حذر في أعقاب تلك الاشتباكات الدامية، واستقبلنا سنة جديدة أخرى وقلوبنا تلهج بالدعاء بالفرج، فلم يبق لنا ولأمثالنا من حيلةٍ سوى الدعاء، وهذا لعمري نهاية العجز! وفي مطلع سنة ١٩٨١ تردّت صحتي تردّياً مفاجئاً لم أعرفه من قبل. أجريت فحوصات طبية مختلفة كانت نتائجها حسنة، ولكن النحول أصابني في الشهر الأول بسبب انقطاع شهيّتي للطعام، وتملّك القلق مني، والأرق الذي بتّ أعاني منه. شعرت بأنني على حافة الانهيار العصبي فقاومت قدر الإمكان، وأنا خجلى من ضعفي، مستغربة ما حلّ بي. حاولت إغراق نفسي في الكتابة والمطالعة، بعد الفراغ من الأعمال المنزلية، فأخفقت

جميع المحاولات، في حين كنت ألج عالم الفكر فيما سبق فينسيني همومي، ويقصيني عن الواقع المحيط بي، وأنهل منه راحة الجسم والأعصاب. علم أولادي بما أصابني فانشغل بالهم عليّ، ولم يقبلوا بوقوعي فريسة المرض والأوهام لأنهم تعودوا أن يروني قويةً، نشيطةً، صامدةً كالحديد في وجه العقبات، أبثّ فيهم روح المقاومة، وأشيع التفاؤل في كل مجلسٍ ومكان... ولكن الإنسان كتلة عجيبة من الأعصاب، لها طاقة محددة على الاحتمال، وعندما يطفح الكيل في إثر المنكدات، يعتريها الوهن، لا محالة. لقد عفت الطعام والخروج من البيت، وقراءة الصحف والمجلات، وصرت أخشى هبوط الليل، خشية الاضطرار إلى تناول المهدئات لأحظى بالنوم الذي عاداني. صرت أشعر بوخز الأشواك في الفراش، كيفما تقلّبت فيه، وأشعر بأن السماء تمطر إبراً ودبابيس إذا ما أمطرت. أحاطني ابني نزيه وزوجه وأولاده الرائعون بالعطف والرعاية، وكذلك فعل زوجي وابنتي رشأ وزوجها، فقاومت ضعفي خجلةً من نفسي، دون أن أُفلح بالتغلب على أوهامي، واسترداد صحتي ونشاطي. بقيت على هذه الحالة زهاء شهرين، ولما علمت ابنتي ندى بما أُعاني منه أتت إلى بيروت مسرعةً مع أميرتي وأختها الصغيرة، فكان لوجودهن بقربي أثر كبير في مساعدتي على الشفاء. لحظت حبيبتي كآبتي فأخذت تغدق عليّ أصدق عواطف الحب، فرُدّت إليّ الروح بفضل أحاديثها وحركاتها وضحكاتها، وكأنها دفقة النور التي أضاءت دنياي: وبعثتني قويةً، نشيطةً ومتفائلةً من جديد. لقد تمنيت أن تبقى عندنا مدة أطول، ولكنْ في بقائها في بيروت تعطيل لدروسها في الرياض، ومسؤولية، نحن في غنى عن حملها، خوفاً عليها في

ظروف ليست مأمونة. كما أن سفرنا معها ومع أمها إلى الرياض لم يكن ممكناً لاضطرارنا إلى حراسة بيتنا لأن من كان يغيب عن بيته في تلك الآونة كان يعرّضه للسرقة أو الاحتلال...

وإذ أنسى لا أنسى هول القذائف التي انهالت على بيروت ليلة العشرين من نيسان، في إثر حدوث معارك ضارية في مدينة «زحلة» في البقاع. قضينا ليلة بيضاء كئيبة، لا ندري ماذا نفعل، وبمَ نفكر: هل ننزل إلى المرآب للإحتماء فيه من القنابل، فالمرآب في العمارات كان الملجأ الوحيد لسكان الأبنية، أو نقبع في أروقة بيوتنا أو حماماتها، بعيداً عن النوافذ والشرفات، لتجنّب الإصابة بالقذائف التي تنفذ إليها وتفّجر الزجاج؟ وكان أن جرّت عليّ هذه النكسة الأمنية نكسة صحية أردتني طريحة الفراش، فألح عليّ ابني نزيه بمغادرة لبنان، ما دامت الحرب مستعرة فيه على هذا النحو المجنون، فاستأجرنا شقة في بلدة «ميجيف» الجبلية، الواقعة في فرنسا، بالقرب من جنيف، وسلمنا بيتنا ببيروت لعائلة صديقة لتقيم فيه، ثم توجهنا إلى دمشق. وبعد أسبوع قضيناه فيها بالقرب من ابنتنا وولديها وأقربائنا، تحسنت صحتي بعض الشيء، وسافرنا إلى جنيف ثم منها إلى المنتجع الجبلي الذي اخترناه، فكان مركزاً لهجرة جديدة لم نكن ندري إلى متى ستستمرّ..

أنا والأرزة في الغربة

عندما حططتنا الرحال في «ميجيف»، وهي على ارتفاع ألف ومئتي مترٍ عن سطح البحر، ومن أجمل مراكز التزلّج في الشتاء، كانت بلدةً مقفرة من الناس تقريباً، يؤمّها بعضهم، للاصطياف في شهريّ تموز وآب فقط. هدوء شامل، وهواء بارد نقي، وهضاب وجبال محرّجة، رائعة الجمال، تقابلها قمم جبال «الألب» المعمّمة بالثلوج. كنا بحاجة ماسة للسكون والراحة، ولكن الشعور بالغربة، والوحدة، واستحالة استشفاف المستقبل الذي ينتظرنا هو ما كان يحزّ في النفس، ويتقاذف الخواطر، وكأن أمواجاً هائجةً تجتاحها، وتفرض عليها نظام المدّ والجزر: مدٌّ وجزر في المشاعر، مدٌّ وجزر في الهواجس، يتوقّفان على نشرات الأخبار المتلاحقة، عبر الراديو والتلفزيون، وعلى اتصالات هاتفية مع أولادنا ورسائل منهم، قلما كنا نحظى بها. تُرى هل نحن في منفى فرضته علينا الأقدار، وتقبّلناه عن طيب خاطر؟ وهل سيدوم هذا الاغتراب طويلاً؟ وإلى متى؟ وماذا بعده؟ وكيف حال الأحفاد الأعزاء، ولا سيما أولاد إبني الذين أقفلت مدارسهم في بيروت،

وذهبوا معه ومع أمهم إلى قريتهم بالقرب من طرابلس لقضاء الصيف فيها؟ ومتى ستأتي أميرتي الحبيبة من الرياض مع والديها وأختها إلى ميجيف كما وعدوا؟ وهل ستأتي ابنتي الثانية من دمشق مع زوجها وولديها استجابة لدعوتنا، لكي يجتمع الشمل مجدداً، ولو لمدة شهر؟ أفكار وخواطر، أسئلة دون أجوبة كانت تدور في رأسي، وأنا أمشي في الغابة، أصغي إلى تغريد الطيور، وأحس بتنفّس الأشجار والنباتات، واستنشق عبيرها وعبير الأرض والأزهار. كنت أشاهد حركة الحياة السارية فيها فيخيّل إليّ أن عطرها قد احتوى الشمس والقمر والهواء والنجوم والتراب، وأقول لنفسي مؤنّبةً: إن من يهوى الطبيعة مثلَكِ، ويحسّ بتنفّسها، ويتفاعل مع جمالها، ويستجلي أسرار الحياة فيها إلى درجة الاتحاد معها، لا يحق له أن يتكلم عن الوحدة، ولا عن الغربة! فأعود أدراجي إلى البيت، وأتوقف بضع دقائق أمام صديقةٍ لي، حالها يشبه حالي في الاغتراب والشكوى الصامتة، إنها شجرة أرزٍ صغيرةٍ، وحيدةٍ في حديقةٍ مجاورةٍ لبيتنا، استرعت انتباهي منذ أن رأيتها أول مرة، فبتُّ أصبّحها وأمسّيها كل يوم، وكأن أواصر صداقة متينة ألّفت بيننا! لقد فُتنت بتلك الأرزة، بل عشقتها، وهل بداية العشق إلا الافتتان؟ فأضحت موضع اهتمامي، وملجأي الوحيد في ساعة الغروب الحزينة، أحتمي بجذعها، أهمس إليها بنوازعي، وهي رابضةٌ، شامخةٌ، تصغي إلى صلاتي، وتحفظ أسراري...

في أواخر شهر حزيران بدأ المصطافون والسياح يؤمّون «ميجيف» فدبّ النشاط فيها إذ فتحت الفنادق والمطاعم أبوابها، وجاءت ابنتانا وأولادهما لقضاء ردح من الصيف معنا. كنا قد

شبعنا وحدةً وتأملات، فاستقبلناهم بفرح، وأدخلنا أميرتي وابن خالتها مدرسةً صيفيةً لكي يتقنا اللغة الفرنسية. كنا نوصلهما إليها صباحاً، ونعود بهما إلى البيت مساءً، وقد أتيح لنا أن نقوم ببعض النزهات في «ميجيف» وضواحيها. شيء واحد كان يزعجنا هو تقلّب الأحوال الجوية السريع في تلك المنطقة إذ كثيراً ما كنا نستقبل النهار في فصل الصيف، ونودّعه وكأننا في فصل الشتاء! وإذا ما استمرّ الصحو والدفء بضعة أيام متتالية، كان لابدّ من حدوث عاصفة هوجاء: رعود وأمطار غزيرة فجائية، تغسل الأشجار والحدائق لتزيدها نضارة وبهاءً. عندئذٍ كان يشتد حنيننا إلى سماء بلادنا الصافية، وشمسها الكريمة وجبالها، وإن كانت أقلّ اخضراراً من تلك الجبال التي لجأنا إليها.

فرغت «ميجيف» من روّادها في شهر أيلولَ وأقبل عليها خريف غائم، بارد، أشبه ما يكون بشتاء بلادنا، فقرّرنا الانتقال منها إلى بلدة «طونون» الفرنسية، القريبة من «إيفيان» على شط بحيرة «ليمان». إن ما دفعنا لاتخاذ هذا القرار، تردّي الوضع الأمني في لبنان، ووجود بيتين صغيرين في «طونون» لأختي رباب، المقيمة في جنيف، ولأخي بشر المقيم في لندن.

قبل مبارحة «ميجيف» فوجئت بأنني مُنحت جائزة البحر الأبيض المتوسط الثقافية من جامعة مدينة «باليرمو» في جزيرة صقليّة، وأنني مدعوة للحضور لتسلّمها. وذلك عقب ترجمة كتابي «الشعلة الزرقاء»، المتضمن رسائل جبران خليل جبران إلى ميّ زيادة، وديوان شعر لي بالفرنسية إلى اللغة الإيطالية. كانت مفاجأةً سارةً حدت بابنتيّ لمرافقتي إلى إيطاليا، وقد صحبنا معنا

أميرتي التي سُرّت بحضور احتفال لتكريمي لا عهد لها بمثله من قبل.

فاتني أن أذكر مشاركتها لي الإعجاب بجارتي الأرزة الوحيدة في «ميجيف» منذ أن حدّثتها عن الصداقة التي انعقدت بيني وبينها فأخذت تتوقّف عندها، كلما كانت تمرّ أمامها، وتحيّيها بلمساتٍ رقيقة حنون، وبنظرات الودّ، كما كنت أفعل تماماً. وبعد رجوعنا من إيطاليا سألتني أميرتي مازحةً:

— وَكيف يا تيتا ستبتعدين عن صديقتك وتتركينها وحدها هنا؟

فابتسمت وقلت لها:

— ومن قال لك إنني سأنساها؟ المسافة بين «طونون» و«ميجيف» قصيرة بالسيارة، وسوف أزورها من وقتٍ إلى آخر، ولن أنساها في حياتي أبداً.

ويوم ودعناها وأهلها في مطار «جنيف» عدنا إلى المنتجع الجبلي الذي قضينا فيه زهاء ستة أشهر، فشعرنا بوحشةٍ كبيرة لأن البيت خلا من الحركة والدفء في إثر غياب حبيبتي وأختها وأمها وخالتها وابنيها. كما شعرت بغصةٍ لفراق ذلك البيت، فالإنسان كالحيوان تماماً، يألف الأمكنة التي يعيش فيها، ويترك فيها بعضاً من نفسه عندما يغادرها. ثم بدأ حنيني إلى جارتي الأرزة الوحيدة وأنا بعدُ في جوارها، وأحسست بأنها هي أيضاً ألفت زياراتي لها، وبوحي بمشاعري وهمومي، فإن للأشجار والنباتات أرواحاً ومشاعر أثبتها العلم الحديث. لجأتُ إليها في عشيّة السفر مضطربةً أشدّ الاضطراب لما سمعت من أخبارٍ مقلقةٍ عن لبنان. عانقتها واستندت إلى جذعها، أبثّها لواعجي، فشعرت براحةٍ نفسيةٍ تشبه

شعوري عندما كنت أعانق أمّي في طفولتي، أو انفرد بصحبة أبي، أو أخلد إلى الراحة في وطني. أنا لم أغترب عنه هروباً من الواجب، أو حباً بالسياحة، أو بحثاً عن الملاهي، ولكنني فارقته مرغمةً للتداوي بعد مرضي في جحيم حرب لبنان. وعندما أقول وطني أعني البلاد العربية كافةً، وأخصّ منها لبنان الذي يعيش في محنةٍ تعتصر لها القلوب، فمتى يا ربّ تتوقّف المجازر فيه، ويعود إليه السلم بعودة الوفاق بين أحزابه وزعمائها؟ هذا ما كنت أبوح به إلى صديقتي الأرزة، وهي تصغي إليّ، وقد هدأ الكون، وانساب الظلام في الحديقة بعد تحوّل الشمس عنها إلى بلادٍ وقاراتٍ أخرى، يعيش فيها بشر وأشجار مثلنا، يحبون ويتألمون، يمرضون ويموتون، ثم تطويهم الأرض في غياهبها. لقد تنبّهت إلى خطأي في تشبيه الأشجار بنا لأنها تموت واقفةً، وتعيش وتعطي بسخاءٍ وهي صامتة متواضعة، فلكم أغبطها على حياتها وعلى موتها! فسواء أكان موتها بفعل الشيخوخة أو المرض، أم كان قسرياً بقطعها لاستثمار أخشابها، فهو موتٌ يُشتهى، لتحوّلها بعده إلى أسرّةٍ في المصانع، تحتضن أطفالاً يحلمون كالملائكة، وقطع أثاث يجلس عليها ملوك وأمراء وأناس من كل الطبقات، وإلى جذوعٍ تزدان بها المواقد، ويتدفأ بها الناس، ويتسامرون مع أزيز نارها وأنغامها وهمساتها، ويستضيئون بأنوارها. فما أجملها وما أنفعها في كل حالاتها!!

خيّم الظلام على الكون، وأنا ما زلت أتسامر مع جارتي العزيزة، وقد شطّت بي الأفكار، وقرصتني نسمات الليل الباردة، فرجعت إلى البيت حزينةً، مهزومةً، تكاد تخنقني العبرات لكي أنهي ترتيب الحقائب استعداداً للرحيل في الغد إلى غربةٍ جديدة...

الموت البطيء في الغربة وفي الوطن

كان اليوم الذي نزلنا فيه من «ميجيف» إلى «طونون» على ضفة بحيرة «ليمان» يوماً بارداً، سماؤه ملبدة بغيوم كثيفة، هبطت على الأرض، فلفّتها بضباب كثيف. استمر الضباب ثلاثة أيامٍ وليالٍ، فحجب عن أنظارنا البحيرة التي جاورناها، والغابة العتيقة التي كان بيتنا في وسطها، مما زاد في كآبتي وافتقادي الأحبة البعيدين عني، وصديقتي الأرزة الوحيدة التي خلّفتها في الجبل. قد تكون السكنى في الغابات متعة في الربيع وفي الصيف، ولكنها موحشة في الخريف وفي الشتاء، ومع ذلك، كنت أشجع نفسي للمشي مدة نصف ساعةٍ يومياً، وأذهب إلى البلدة لشراء حاجياتنا، ثم استغرق بالكتابة والمطالعة بعد الفراغ من واجباتي المنزلية. كانت صلة الوصل الوحيدة بيني وبين العالم الخارجي «الهاتف»، هذا الجهاز السحري الذي كان يسمح لي بسماع صوت أولادي وأهلي وأصدقائي فأوهم نفسي بأنني قريبة منهم، وأبارك العالِم العبقري الذي اخترعه! لم أكن أحتمل فكرة قضاء

الشتاء بطوله في تلك الغابة المنسيّة، حيث الصقيع والعواصف والوحدة. أوليس الرجوع إلى بيروت للاستئناس بقرب إبني وأولاده، وعدد كبير من الأصدقاء، على الرغم من الحرب الدائرة فيها، أفضل من الضجر والاغتراب في «طونون»؟ فكرت ملياً بالموضوع، ورحت أصلي بحرارة، وأترقّب حدوث هدنةٍ في لبنان للرجوع إليه، لأنني أفضّل ميتةً سريعةً فيه على هذا الموت البطيء في هذه الغابة المنسيّة. ولا ريب في أن الله استجاب لدعواتي إذ أخبرنا إبني بأن الحالة في سائر أنحاء لبنان هادئة، فغادرنا «طونون» عائدين إليه في أول طائرة قبل حلول السنة الجديدة، وكلّنا أمل بألا نرجع إليها إلا في فصل الصيف للاجتماع بأولادنا وأحفادنا على أحسن حالٍ وأهدأ بال!

كان شتاء ١٩٨٢ ممتعاً في بيروت لاعتدال مناخها، وتجدّد النشاط الثقافي والاجتماعي فيها، ولو لم تكن أحياء بيروت القديمة مدمّرة، وبعض أبنية الأحياء الجديدة مشوّهة بفعل القذائف التي أصابتها، لما خطر ببال أحدٍ أنها ما زالت في حالة حرب، ولكنها حرب خامدة خمود النار في الموقدة... إن الشيء الوحيد الذي كان يروّعنا هو حدوث انفجاراتٍ في سيارات مفخّخة بين الحين والآخر، تلقي الذعر في النفوس، وتصيب الأبرياء في أغلب الأحيان، والله وحده يعلم من هم المجرمون الذين كان يسوؤهم هدوء الحالة، فيعمدون لإضرام نار الفتنة، ويزرعون الموت في كل مكان! كنا نجول في سائر أنحاء لبنان آنذاك غير عابئين بالأخطار، نصعد إلى جبل كسروان لتفقّد الأصدقاء، والترويح عن النفس، ثم نعود إلى ببروت في المساء سعداء باختلاس يوم صفاء. كما كانت تقام في فنادق بيروت أعراس كبيرة، مثلما

كانت تسير في شوارعها الجنائز، فالحياة لا تتوقف، وجميع السلع متوفّرة، ولكن تفاقم الفوارق الطبقية كان ملحوظاً لظهور أغنياء جدد أثروا بتجارة الأسلحة ومواد البناء...

اشتاقت إلينا أميرتي فقدمت إلى بيروت مع أمها وأختها في ٢١/٢/١٩٨٢، وكذلك جاءت من دمشق ابنتنا الثانية وولداها، فاجتمع شملنا بوجود إبني وأولاده. لقد نعمنا معهم مدة خمسة أيام فقط إذ تجدّد القتال فجأةً ليلة الخامس والعشرين من الشهر، وانتشر في الأحياء السكنية، لوجود مكاتب الأحزاب المتناحرة فيها، مما شلّ الحركة في اليوم التالي، ودفع ابنتيّ للسفر. ودّعنا الصغرى بعد الظهر، وأوصلنا الكبرى إلى المطار في المساء فضممتها إلى صدري، وضممت الطفلتين المذهولتين مما حدث، والدموع تفيض من أعيننا، ثم عدنا إلى البيت منقبضي الصدر لحرماننا من الاستمتاع بفرحة اللقاء العائلي بعد فقدانه مدة طويلة. أذكر جيداً أننا فتحنا الراديو لتتبّع الأخبار فسمعنا نبأً ارتعدت له أوصالنا، لم يكن في الحسبان: مسلحون مجهولون اختطفوا طائرة ركاب في أرض المطار، وهدّدوا بنسفها إذا لم تستجب السلطات إلى مطاليبهم. وبعد قليل نقلت الأنباء ما يلي: «الطائرة المخطوفة كانت قادمة من لندن، وقوات الأمن حاصرت المطار الدولي الذي توقّفت فيه الملاحة، وشرع المسؤولون بالتفاوض مع المختطفين...» هذا يعني أن ابنتنا وطفلتيها ما زلن في المطار المحاصر لأن الحادث المشؤوم وقع قبل إقلاع طائرة الخطوط الجوية السعودية، وأن حياة المغادرين على مختلف الخطوط الجوية العربية والعالمية في خطر إذا ما فشلت المفاوضات، ونسف المختطفون الطائرة المستهدفة، القابعة في أرض المطار، بالقرب من قاعاته ذات الواجهات

الزجاجية الكبيرة من كل جانب! إني أعجز حقاً عن وصف ما حلّ بنا، زوجي وأنا، من قلقٍ واضطرابٍ وخوفٍ، لا على ابنتنا والطفلتين فحسب، بل على سائر المسافرين الذين انحصروا في المطار، وأصبحوا مهدّدين بالموت في كل لحظة. أذكر أننا هرعنا إلى الهاتف نتّصل بالمطار، وبمكتب شركة الخطوط الجوية السعودية فيه، للاستيضاح عما إذا كانت قوات الأمن ستعيد المسافرين المحاصرين إلى بيوتهم. ولكن خطوطه كانت مشغولة باستمرار، وإذا علق أحدها كان لا يجيب. ثم حاولنا الاتصال بالإذاعة، وبدوائر الأمن دون جدوى، وقد خيّم الظلام على المدينة، وعلى قلوبنا، وتباطأت عقارب الساعة في سيرها، ونحن على أحرّ من الجمر، آذاننا معلقة بالترانزيستور، والترانزيستور يبثّ أنباء سير المفاوضات ببطءٍ عجيب، من وقتٍ إلى آخر. وبينما كنا نستمع لنشرة الأخبار المصورة في التلفزيون رنّ جرس الهاتف وإذ بصديقٍ شهمٍ من أشهر الأطباء يطمئننا على ابنتنا وطفلتيها وسائر المسافرين المحاصَرين، ويبشّرنا بنجاح المفاوضات، كما وعد بالبحث عنهن في المطار، لأنه ذاهب إليه مع فرقة الصليب الأحمر، وبمكالمتنا منه. ولقد وفى صديقنا الكبير بالوعد، وصدقت أقواله إذ سلّم المختطفون أنفسهم بعد منتصف الليل، وأُفرج عن ركاب الطائرة المخطوفة الذين رأوا شبح الموت بأعينهم، خلال ساعاتٍ مأساوية، حسبوها دهوراً! هذا ما علمناه منه في مخابرته الثانية لنا في الواحدة صباحاً، مؤكداً أن سائر المسافرين بخير، وأنهم بانتظار طلوع الفجر لاستئناف رحلاتهم.

ليتني كنت قادرة على شلّ كل يدٍ أثيمة تمتدّ بالسلاح لخطف طائرة، وتهدّد ملاحيها وركابها بالموت، أو تضع لغماً في

سيارة ، أو تلقي القذائف على الأحياء السكنية لأن في عملها جبناً لا شجاعة، ونذالة لا بطولة! جلست في تلك الليلة بجانب «الهاتف» أترقّب سماع صوت ابنتي التي استطاعت مخابرتنا في الرابعة صباحاً، فسمعت منها وصف ما عانت في الساعات السابقة هي وطفلتاها وسائر المسافرين، من الخوف والبرد، وفقدان الماء والطعام. هنأتها وهنأت نفسي بالسلامة، واستسلمت لنوم عميق. وعندما صحوت انجلت في خاطري فكرة الموت البطيء سواء في الغربة أو في الوطن، فأنا واحدة من الناس الذين تعايشوا في لبنان مع القنابل، دون أن يدعوا لكلمة الخمول مجالاً للدخول في قاموس حياتهم، ولكنني لا أنكر أنني صرت أخشى ركوب الطائرات، وأخاف التجوّل في بيروت وضواحيها، حيث أخذ مسلسل السيارات الملغومة يهدّد كل إنسان بأبشع من القتل، أعني بالاحتراق أو التشويه أو بفقدان ذراعه، أو رجله، أو عينيه، أو عقله، فيقضي بقية حياته معاقاً، عالةً على أهله والمجتمع، يموت ألف ميتة كلّ يوم، وتحترق أعصابه بالآلام!. ناهيك عن خطر رصاص القنّاصة من المرتزقة الذين أتوا إلى بيروت لاصطياد الأبرياء من أوكارهم المخفيّة...

الصيف الحزين

لم يكن مستغرباً أن أمرض نفسياً وصحياً بعد سفر أولادي وأحفادي، وبعد سلسلة الانفجارات في بيروت، وانتشار الفوضى في أحيائها السكنية. في أثناء وجودهم بقربي تنزاح الكوابيس عن صدري، أنسى همومي، وأطرد الأوهام، ولا يشغلني سوى الخوف عليهم من الأذى. لقد فارقتهم على أمل لقاءٍ آخر بهم قريب، ولكن اندلاع المعارك في لبنان يدعو للتشاؤم ولليأس من احتمال رجوعهم إليه، فلننتظر الصيف المقبل، علّهم يأتون لزيارتنا في «طونون» للترويح عن أنفسهم وإسعادنا.

كان وجود إبني وعائلته في بيروت بالقرب منا داعياً للاطمئنان وللسلوى، على الرغم من خطورة التنقّل بين بيتهم وبيتنا في كثير من الأحيان. وعندما تعطلت المدارس في عيد الفصح المجيد، رافقتهم إلى شمال لبنان وقضينا في الريف أسبوعاً هانئاً ممتعاً، ثم واصلت السفر معهم من طرابلس إلى دمشق حيث سبقني زوجي ليأخذ سمات الدخول إلى فرنسا وسويسرا استعداداً لرحيلنا

إلى ملجئنا الفرنسيّ الجديد في غابة «طونون» المنسيّة... لقد أمسى إعداد حقائب السفر، والنزوح من بلدٍ إلى بلد أمراً طبيعياً في حياتنا، وكأننا ريشة تتقاذفها الرياح حيثما تشاء، غير أننا رضينا بالأمر الواقع مرغمين، وكلنا أمل بأنه زائل لا محالة، سيعقبه الاستقرار المنشود بعد نهاية الحرب اللعينة.

أغرقت نفسي بالعمل في الحديقة بعد الوصول إلى «طونون» وغرست فيها أنواعاً رائعة من الأزهار والورود، وبعض الأشجار المثمرة، وأرزةً في وسطها، تكريماً لذكرى جارتي السابقة أرزة حديقة «ميجيف». ولقد زرت تلك الجارة الصديقة في شهر حزيران، ووعدت نفسي بتفقّدها عدة مرات أخر، وفاءً لعهد الصداقة. ومن غريب الاتفاق أن الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان حدث يوم وصول أميرتي مع والدتها وأختها من الرياض لزيارتنا في «طونون» فحرمتنا أنباء الهجوم الكاسح لذة اللقاء، وصفو الأيام. حاولنا قدر المستطاع إقصاء الطفلة عن سماع تفاصيل الحدث المرّوع الذي تنبّه العالم لخطورته، وأخذت وسائل الإعلام تنقل صوره على شاشات التلفزة، وتعلّق عليه مستنكرةً مستهجنة، ولكنها كانت تسمع أحاديثنا في البيت، وتضطرب لاضطرابنا، وهي شديدة الولع بلبنان، تحنّ إليه وإلى بحره، وإلى ذكريات طفولتها فيه. لقد أدركت مأساة اللاجئين الفلسطينيين من خلال الأخبار المصوّرة التي شاهدتها معنا، وسألت بإلحاح: لماذا تُغير عليهم طائرات الصهاينة؟ ولما كانت على وشك استقبال عامها التاسع، ومهتمةً بالموضوع، أطلعناها على مأساة فلسطين، وحكاية الغدر والتهجير التي لحقت بشعب عربي، وأدّت إلى اغتصاب أرضه، فأدركت أن نكبته هي نكبتنا نحن العرب، في

كل مكان. ولن أنسى شدّة حزنها ليلة نقلت وسائل الإعلام المصورة خبراً مروّعاً عن غارةٍ اسرائيلية على المخيمات في جنوب لبنان، ألقت فيها ألعاباً مغرية للأطفال فالتقطوها وتفجّرت بأيديهم الصغيرة، وجرحت وشوّهت وقتلت عدداً كبيراً منهم!.

في شهر تموز التحقت بنا ابنتي رشأ مع ولديها فأبعدنا الأحفاد عن جوّ المحنة وأخبارها وصورها، إذ لا يجوز لنا أن نعكر أفكارهم، ونشوش أحلامهم. كانوا يتنزهون معاً ويلعبون، وينامون باكراً في الأسبوع الأول، ثم انتقلت أميرتي مع أمها وأبيها وأختها إلى منتجع جبلي، حيث استأجروا شقةً لقضاء ما تبقى من الصيف فيها، فكنا نزورهم من وقتٍ إلى آخر لقرب المسافة بين «طونون» وبين بلدة «ميجيف» التي حلّوا فيها.

عدت إلى مذكرتي فقرأت فيها ما يلي: «اجتمعت الأسرة عندنا في ١٩٨٢/٧/٢١، ما عدا إبني نزيه وعائلته، لأنهم بقوا في لبنان. القوات الاسرائيلية تحاصر بيروت وأنا قلقة عليهم أشدّ القلق، ولكنني تلقيت مخابرة هاتفية اليوم من أحد الأصدقاء المخلصين، أعلمني فيها أنهم غادروا بيروت إلى طرابلس منذ بضعة أيام. إن لبنان، مثل قلوبنا، في غليان، إنه يحترق والعالم يتفرّج، والدول العربية تتصارع فيما بينها، وكأنها لا تعبأ بالأخطار المحيقة بها!».

تصفّحت أوراق المذكّرة فوصلت إلى ما دوّنته في الرابع من شهر آب، وهذا نصه: «غطرسة إسرائيل وجنونها تجاوزا كل الحدود، فقد ضربت الحصار على مدينة بيروت في الأيام السابقة،

وألقت عليها اليوم نيران مدافعها وصواريخها فانهالت على الأحياء السكنية بلا هوادة، وكان يوماً من أيام صقر!».

لقد اختلطت الأمور على الناس جميعاً، وحتى على الدول العربية التي عقدت مؤتمر قمة بمدينة «فاس» في أول أسبوع من شهر أيلول، لتوحيد الصفوف، وشجب الاحتلال الاسرائيلي الغاشم للبنان... كما أنه جرى انقسام في البرلمان الصهيوني في تلك الأيام السوداء، وحصلت مشادة عنيفة فيه بين معارضي سياسة «بيجن» و«شارون» الإرهابيين، وبين مؤيديها، ونقلت صورها شاشات التلفزيون العالمية، ولكنهما لم يرعويا، فاستمرا بتنفيذ مخطط إقصاء المقاتلين الفلسطينيين عن لبنان، لبنان الذي تواطأ بعض الخونة فيه مع إسرائيل، والذي اجتمع نوابه وانتخبوا بشير الجميل رئيساً للجمهورية في جوٍ من البلبلة رهيب.

عندما شاهدت صور خروج أول فوج من الفلسطينيين من مرفأ بيروت إلى تونس على الشاشة الصغيرة وهم يرفعون بأصابعهم شارة النصر، قلت لنفسي: لو كان حكام إسرائيل أكثر حذقاً لما ارتكبوا هذه الجريمة النكراء، وقتلوا الأبرياء، ورحّلوا أشبال المقاومة لأن العنف يجرّ عنفاً أشدّ وطأةً، ولأن الدماء الزكية التي سفحوها، والديار التي خربوها تذرّعاً بحماية أمن دولتهم المغتصبة، ستزيد الأبطال الباقين تضامناً وقوةً، وإصراراً على استرداد حقهم بأرضهم وكرامتهم، أينما وجدوا حتى آخر الزمان.

أضحينا في تلك الحقبة من الصيف نتمنى سماع خبر سارّ يحمل شعاع أمل يبشّر بوضع حدٍّ للمأساة. كنا نترقّب الأنباء الواردة إلى سائر أنحاء العالم بسرعة البرق، ولا نسمع إلا المفجع:

كان أول ما علمنا به مقتل رئيس الجمهورية اللبنانية المنتخب، في مكتبه بحزب الكتائب، في الرابع عشر من شهر أيلول، وبعده مباشرةً دخول القوات الاسرائيلية إلى بيروت الغربية، من جهة المرفأ فاحتلتها، وأمطرت عليها القنابل والصواريخ من الجوّ، ومن الأرض دون رحمة! ثم حدثت مجازر مخيّميّ «صبرا» و«شاتيلا» التي لطّخت تاريخ دولة إسرائيل بالعار وروّعت العالم، فإن مذبحة مئات الفلسطينيين نساءً وشيوخاً وأطفالاً في مخيماتهم حفزت أكثر الدول لاستنكار الجرائم البشعة التي ينفّذها حكام إسرائيل على الساحة اللبنانية كالقتل والتدمير، برغم خساراتهم الجسيمة بالأرواح والمعدات، وقد ماتت ضمائرهم، وامتلأت صدورهم بالكراهية والأحقاد.

إن لنا شقةً في بيروت ولابنتنا بيتاً، علمنا بأن الصواريخ الاسرائيلية قد أصابتهما وألحقت بهما أضراراً جسيمة فتلقيت الخبر بكثير من الهدوء، يشبه الهدوء الذي استقبلت به خبر سرقة أحد البنوك قبل ست سنوات، حيث كان لي صندوق أودعت فيه الوثائق والحليّ، فلقد بتّ أحرص على سلامة الأرواح فقط التي لايقارن ثمنها بأي مالٍ أو متاع.

انقضى الصيف فغادرتنا حبيبتي وأهلها إلى باريس حيث ابتاعوا بيتاً صغيراً وأصروا علينا باللحاق بهم لكي أتعالج فيها عند طبيب يعرفونه، وأقضي معهم أسبوعاً، قبل رجوعهم إلى الرياض. ولقد رافقناهم إلى المطار ورجعنا منه إلى الغابة، وقلوبنا تلهج بالدعاء للبنان ومن فيه بالسلامة والأمان.

الخصام والنقد الذاتي

كان لقاؤنا مع أميرتي وأهلها في باريس منعشاً للروح، عكّرته حادثة طفيفة ذلك أن للأطفال قدرة على التقاط موجات الأجواء العائلية، تعادل قوة الرادار: إذا ما تعكّرت أحسّوا بها، وتألموا لها، وإذا ما صفت انعكس صفاؤها عليهم غبطةً وصحةً. كانت أميرتي مرهفة الحسّ، وما زالت، تشعر بالفرح عندما تبتسم أمها، وتبتئس عندما تراها مكتئبة، فأمها هي مثلها الأعلى، وحبيبتها المفضلة، وميزان مزاجها. أما أبوها فهي معجبة به ككل فتاة، تحبه كثيراً، وتهتم به، وتطيع أوامره بكل سرور، ولكن فرط حساسيتها جلب لها متاعب كبيرة في طفولتها، كثيراً ما أعربت لي عنها، عندما كنا نلتقي. كنت أطيّب خاطرها، وأوكد لها أن والديها يحبانها أكثر من أي شيء في الوجود. وإذا ما أنّباها أحياناً فلحرصهما على تربيتها تربيةً صالحة.

لقد سمِعْتُهما ذات مرة يتناقشان مناقشةً حادّة، فاعتزلت في غرفتها حزينةً تبكي. دخلت عليها وقلت لها:

ـــ لا داعي للبكاء يا حبيبتي، النقاش بين أمك وأبيك أمر طبيعي، يحدث في كل البيوت، ولسوف يتصافيان بعد قليل، ويزول كل أثر للخصام، فلا تكتئبي.

فقالت لي وقد مسحت دموعها:
ـــ لا أريد أن «تزعل» ماما من بابا يا تيتا! إن بابا طيّب ويحبها كثيراً.

فقلت لها:
ـــ وماما تحب أباك كثيراً، ولاشيء يدعو للاضطراب، هيا نقوم بجولةٍ في السوق، ونترك الكبار يتصالحون...

كانت جولتنا ممتعة حقاً، ولما عدنا إلى البيت ركضت إلى حجر أمها، تعانقها وتغمرها بحنانها، فعاد الابتسام إلى البيت مجدداً.

فكّرتُ بما جرى يومئذٍ، وحمدت الله على أن الأطفال ينسون أحزانهم بسرعة، ولكن الآباء قلما يتنبّهون إلى ضرورة إخفاء المشكلات الشخصية عنهم لكي لا يتعكّر صفوهم، ولا تسودّ الدنيا في عيونهم.

أما عن النقد الذاتي، فإن لي مع أميرتي تجربة طريفة: لقد تعلمت أن تنقد ذاتها باستعراض ما فعلت في النهار، قبل أن تنام، فكانت تسائل نفسها عما فعلت في النهار، صواباً كان أو خطأً، فتحاسبها، ولقد اقتبست هذه العادة وجنت منها فوائد كثيرة. وما زلت أذكر ليلة نهضت من فراشها بعد أن انسحبت من غرفة

الجلوس لكي تنام، وعادت إلينا مسرعة، فتوجهت إلى جدّها، وقالت له بعد أن قبّلته:

ـــ سامحني يا جدو ... عفواً يا جدو لأنني لم أكن لطيفة معك اليوم...

فقبّلها بحرارة وقال لها:

ـــ لقد سامحتك يا حبيبتي، تصبحين على خير، نامي مرتاحة، وأنا متأكد أن ما حدث لن يتكرّر أبداً!

وكان ما حدث أمراً بسيطاً حقاً، ولكنه لم يكن مستحباً منها. كانت تجوب الطريق الفرعي المجاور للبيت على «الدرّاجة» مع جارةٍ لها في مثل عمرها، وكان الجو مائلاً للبرودة، قبل الزوال، فناداها جدّها، وطلب منها أن ترتدي سترةً فوق قميصها فلم تستجب له، بل قالت له بلهجةِ استخفاف، وهي تدور «بالدرّاجة» أمامه، وتنطلق بعيداً عن البيت:

ـــ الدنيا شوب والله، ولن أبرد أبداً، لا تهتم بي، باي! باي!.

فما أجمل أن نتعوّد الاعتذار ممن نُسيء إليهم، منذ صغرنا، وأن نصفح عن الذين يسيؤون إلينا! ما أجمل أن نتواضع من غير أن نفقد كرامتنا، وأن نرضي ضمائرنا بمحاسبة أنفسنا بشكل مستديم!

الرابطة بين حبيبتي وأختها الصغيرة كانت رابطة حب وعطف وحنان، أكثر مما هي رابطة صداقة في تلك الأيام، بسبب الفارق في السن بينهما ذلك أن أميرتي أضحت صبيةً صغيرةً في عامها التاسع، تتصرف بحكمة، تقرأ كثيراً باللغتين العربية والفرنسية، وتميل إلى معاشرة الكبار، والإصغاء إلى أحاديثهم، بينما

كانت أختها آنذاك طفلةً في الرابعة من العمر، تعيش في عالم الطفولة الرائع، تساورها الأحلام، وتستمتع بما لديها من دُمى وألعاب، ولكنها كانت تنفعل بسرعة إذا ما عاكسها أحد، وتبكي لأتفه الأسباب، وكأن الإجهاش بالبكاء وسيلة التعبير الوحيدة عن الاحتجاج. لقد عجزت أمها عن نهيها عن البكاء، فاتفقتُ مع حبيبتي على طريقةٍ لكي تكفّ عن تلك العادة وقلت لها:

ــ اعتقد بأن عزة «الدلوعة» ستكفّ عن استعمال سلاح البكاء إذا ما قلّدتها أنا، فتعالي لندعوها إلى غرفتك علّنا ننجح في التجربة.

ناديناها فأتت مسرعةً والنور يطفح من وجهها الملائكي الصبوح، فأقفلتُ باب الغرفة، وطلبت منها ومن أختها أن تجلسا أمامي، ثم قلت لهما:

ــ سأروي لكما حكايةً واقعيةً جرت لي يوم كنت في العاشرة من العمر: كانت جدّتي، رحمها الله، تحبني كثيراً، كما أحبكما أنا، وتريد أن أصبح مثالاً للفتاة اللبقة في تصرّفاتها، وكثيراً ما كانت تنبّهني إلى أخطائي، لكي أتجنّبها. لم أكن أعلم بأنني كنت أقوم بحركاتٍ بشعة، عندما كنت أضحك، ويبدو أن أمي وأبي وهي قد طلبوا مني الكفّ عن القهقهة بصوتٍ مرتفع، ونصحوني بمراقبة نفسي، ولكن تلك العادة كانت مستحكمةً بي... لذا وجدت جدتي أن أفضل وسيلة لكي أُبطل تلك الحركات والأصوات النابية هي تقليدي! وذات يومٍ طلبت مني أن أروي لها آخر نكتةٍ سمعتُها، ففعلت، وإذا بها تضحك بصخبٍ، على غير عادتها، وتهتز على مقعدها، وتقوم

وتقعد وهي تضحك، بشكل مستغرب، ففهمت في الحال أنها كانت تقلّد صوتي وحركاتي، وطريقة ضحكي البشعة... وأنا أؤكد لكما أنني صرت أضحك باعتدال، منذ ذلك اليوم، من غير أن أدعو الناس لانتقادي!

كان لا بد من تمثيل الحكاية أمام الريحانتين حين قصصتها عليهما فضحكتا كثيراً، ثم قالت لي الصغرى:

ـــ الحمد لله يا تيتا أنني لا أضحك مثلما كنت تضحكين، أليس كذلك؟

فأجبتها:

ـــ طبعاً يا حبيبتي فأنت فتاة «حلوة»، رقيقة ولكن... ولكنك تبكين أحياناً بلا سبب، فتعالي معي لنقف أمام المرآة لأني أودّ تقليدك عندما تبكين.

وقفنا أمام المرآة معاً، وافتعلتُ البكاء والنواح فذُهلت وقالت لي:

ـــ إنكِ لست «حلوة» هكذا، ولا صوتك «حلو» يا تيتا.

فانتهزت الفرصة وقلت لها:

ـــ هذا صحيح، ولكني أريد أن تجرّبي أنت افتعال البكاء، وتنظري إلى وجهك جيداً، نعم هكذا! أرأيت كيف زال جمالكِ؟ والآن هيا ابتسمي، وانظري إلى وجهك مجدداً، لكم هو جميل ومنوّر!

وتحاشياً لإثارة غيرتها من أختها قلت لأميرتي:

ـــ الآن جاء دورك يا عصمة، إنك تمشين مثلما يمشي جدّك

تماماً، مشية رجل يفتح قدميه عندما يدوس الأرض، لا مشية فتاةٍ رشيقة...

وقلّدت مشيتها فضحكت، ووعدتني بتصحيحها. أما «عزة» فقد كفّت عن اللجوء إلى البكاء لأتفه الأسباب، منذ ذلك اليوم، بفضل التقليد الذي اقتبستُهُ من جدتي في الغابر من الأيام.

أحسب أن نجاح التجربة هو الذي ساقني إلى التفكير بالبكاء والضحك قبل أن أنام، وذكرني بمقطع من كتاب للأديب الفرنسي «ألبير كامو» كان عنوانه: «كراريس ١٩٣٥ ــ ١٩٤٢» هذا نصّه: (إن مايُقتل في هذا العصر هو أفراح الشمس والماء ووجوه النساء... إننا نعيش في أوج المفارقات، عصرنا يختنق ويغرق حتى رقبته في غمارها، من غير أن تنجّيه دمعة!).

لقد تألّم هذا المفكر الكبير لاختلال الموازين الأخلاقية والاجتماعية، وتحجّر المشاعر الإنسانية، في إثر الحرب العالمية الثانية، ولما نجم عنها من تشويهٍ للحياة والبيئة والطبيعة، بما فيها وجوه النساء، فغرقت المجتمعات في جحيم المادة، وحُرم الناس من نعمة البكاء! إنه شيء مخيف حقاً، فماذا ينتظر أميرتي وأحفادي وأبناء جيلهم في القرن الواحد والعشرين؟ ولكنني طردت من مخيلتي الصور المقلقة، ورحت أفكر بفائدة البكاء للإنسان، عندما يفيض قلبه بالدموع، لأن البكاء أسمى تعبير عن المشاعر الإنسانية، فيه إثبات لوجود الرحمة والتراحم بين الناس، وفيه تفريج عن الكرب عظيم، إذ لا شيء أمضّ على النفس من احتباس الدموع في حالات الحزن والتفجّع. أما الضحك، فلكم بتنا في

حاجةٍ إليه في هذا العصر المشحون بالنكبات، فقد اغتالته مآسي الحروب الدائرة في البلاد الصغيرة، الضعيفة، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، واغتالت معه ضحكة الأطفال، مما ذكرني بدعاءٍ رائعٍ للشاعر الكبير بدوي الجبل، طيّب الله ثراه، حين أنشد يقول:

ويـا ربّ من أجـلِ الطفولـةِ وحدَهـا
أفِضْ بركاتِ السلـمِ شرقـاً ومغربـا

وَصُنْ ضِحكـةَ الأطفـالِ يا ربّ إنها
إذا غرّدت في ظامئٍ الرمـلِ أعْشبـا

ويـا ربّ جَنِّبْ كلَّ طفـلٍ فلا يرى
وإن لجَّ في الإعنـاتِ وجهـاً مُقطّبـا

وهـيِّء له في كلِّ قلبٍ صبابـةً
وفي كلِّ لُقْيـا مرحبـاً ثم مرحبـا

سنــة الأسفــار

استقبلت سنة ١٩٨٣ في بيتنا الموحش في غابة « طونون » المنسيّة ، وقد مضى على إقامتنا فيه تسعة أشهر طويلة ، طال معها غيابنا عن بيروت ودمشق ، فدفعنا الشوق للعودة إلى أولادنا وأحفادنا المقيمين فيهما ، غير عابئين بما ينتظرنا من مفاجآت في لبنان الذي ما زال يئنّ من شدّة الجراح . وقبل أن نغادر فرنسا في الحادي عشر من شهر كانون الثاني بثلاثة أيام ، اشتدّ حنيني إلى جارتي القديمة أرزة « ميجيف » الوحيدة ، وقد غمرتها الثلوج بردائها الأبيض مثلما غمرت نفسي نوازع الغربة والوحدة التي تلذع القلب ، وتؤجّج فيه العواطف ، رغم البرودة ... أقبلتُ عليها منفعلةً ، مهتاجةً ، ووقفت أتأملها بما يشبه الخشوع ، وقد سمحت لي شمس الظهيرة الحادة في الجبل بالركون إليها فترة لا أعلم كم استغرقت من الوقت ، وهي منتصبة أمامي بقامتها الجميلة ، وأغصانها الوارفة ، وكلّ ما فيها ينطق بالهيبة والزهوّ . كان الثلج العالق عليها يذوب شيئاً فشيئاً ، تحت تأثير الحرارة ، فَخُيِّل إليَّ أن قطرات الماء التي أخذت تتساقط منها دموع هادئة ، تنهمل مثل

دموعي. لقد جئت أودّعها، فلا عجب إذا ما بكيت لأن وداع من نحبّ يستدرّ من محاجرنا العبرات. ومن يدري فلعله الوداع الأخير لأنني ذاهبة إلى بلدٍ ما زال في حالة حرب وفوضى، رصاص القنص فيه، وشظايا القذائف والمتفجرات تحصد أرواح الناس الذين يتعرضون لها، ولا توفّر أحداً. عانقت صديقتي، طوّقت جذعها بذراعيّ ورحت أبثها أشجاني، وأُعرب لها عن اضطرابي، وأئتمنها على دموعي. قلت لها، فيما قلت، إنني محزونة للبعد عن أحبتي، ولما أسمع من أخبار مفجعة غما يجري في لبنان، عن أطفاله ونسائه ورجاله وشيوخه الأبرياء الذين يصابون كل يوم بلا ذنبٍ اقترفوه، وعن الذين يتشوهون فيه ويجوعون ويعطشون! كما بحت لها بحزني على آثار حضارةٍ عريقةٍ فيه، ومؤسساتٍ علمية، وأشجارٍ وأحراجٍ تتعرّض للقصف منذ سبع سنين، من الداخل ومن الخارج...

كان كلّ ما في الكون حولنا صامتاً يوحي بالاطمئنان إذ عندما تغطي الثلوج الجبال والبيوت والحدائق، وتكلّلها بتيجانها الساحرة يتسرّب نوع من الطمأنينة في نفوسنا سواء أكنا محزونين أم سعداء. ثم مسحت دموعي، وسرحت مع أفكاري بعيداً، وأنا ما زلت معانقةً صديقتي، فأحسست بحرارةٍ تدبّ في عروقي، وبأنني أسمع همساً أثيرياً منبعثاً منها يواسيني. أصغيت إليه بكل ملكاتي، وأنا حائرة، مندهشة، ومتأثرة أشدّ التأثر. تُرى هل الدموع التي سفحتُها أمامها، وعلى جذعها كانت الحافز لها لمواساتي؟ لا أدري! ولكن الهمسات التي تناهت إلى مسمعي كانت تشبه العبارات التي نسمعها في أحلامنا فنتذكّر بعضها عندما نستيقظ، ويتبخّر بعضها الآخر من الذاكرة، ونندم على

ضياعه... غير أنني ما زلت أذكر بوضوح همسات الأرزة، ولا سيما عندما قالت:

ـــ «هوّني عليكِ أشجانك يا صديقتي الوفيّة، فأنا غريبة مثلك في هذه الأرض، اجتذوني من غابات أجدادي في شمال هذه القارة، وزرعوني هنا في وسط حديقتهم لأزيّنها، بل لأعيش وحيدةً فيها وأموت وحيدة... أنت تشكين وطأة الاغتراب عن أهليك وأوطانك، وأنا مثلك أشكو للخالق غربتي، وبعدي عن أهلي ورفاقي وترابي. أنتِ تتألمين للدمار الذي حلّ بلبنان، وأنا كذلك، لأن أواصر قرابة تشدّني إليه، وتربطني به وبأرزه الخالد الذي اتخذه شعاراً لعلمه، فلا تبتئسي لأن الحرب فيه لن تدوم، والفتنة تأكل أبناءها، ولبنان وأرزه خالدان خلود الدهر! ثم إنني هنا أتعزّى بمشاهدة العجب العجاب في هذا المكان النائي الذي يؤمّه السياح، إما صيفاً للاستجمام، وإما شتاءً للتزلج على الثلج. إنهم يمرّون حولي من كل الأعمار والأجناس، بعضهم يثني على جمالي، وبعضهم الآخر منشغلٌ بحاله لا يراني... أما العشاق يا صديقتي فكثيراً ما يجلسون في هذه الحديقة إلى جانبي فأصغي إلى مناجياتهم، وأشاهد عناقهم وقبلاتهم، وغالباً ما يتشاكون ويتعاتبون، ثم ينسجون الأحلام للمقبل من أيامهم. حنانٌ وضمٌّ وشمٌّ، ابتسامات ودموع ووعود، ثم يتفرقون فيذهب كل واحد منهم في طريق، والله وحده يعلم ما ينتظره من مصير. فسافري يا صديقتي، تشجّعي وانزعي الأحزان عن قلبك، ولا تخافي شيئاً، لأنك تحملين قلباً يحبّ، فإن القلوب التي يعشّعش فيها الحبّ مباركة، تبقى صافية، وتسعد حتى بالآلام».

وفجأةً ساد السكون، وكان سكوناً رهيباً، فشعرت بأنني

صحوت من حلم مذهل. نظرت إلى السماء أسألها عن سر ما سمعت، ولكنها بدت بعيدةً ولم تجب، ثم أحسست بقشعريرة تسري في جسمي، فانسحبت من مكاني أمشي الهوينا على طريق العودة إلى المقهى، الذي كان زوجي ينتظرني فيه، ولم ألتفت إلى الوراء لإلقاء نظرة أخيرة على الأرزة لأنها كانت قد استوطنت قلبي. وقد رجعنا إلى بيتنا في «طونون» بعد تناول الغداء وأنا مرتاحة النفس، مسرورة، كمن عثر على كنزٍ غير منظور، لا يستطيع أحد أن يسلبه إياه.

لو ضرب لنا بالرمل أحد المنجمين المشعوذين في تلك السنة، وتنبّأ بأنها ستكون سنة أسفار متلاحقة، شرقاً وغرباً، لما كذب أبدا لأننا قضيناها في الأسفار من فرنسا إلى دمشق، ومنها إلى بيروت، ثم عودة إليها، ومنها إلى الرياض حيث قضيت عشرين يوماً بالقرب من أميرتي الحبيبة، فكنت أصحبها إلى مدرستها صباحاً، وأرافق السائق للعودة بها إلى البيت بعد الظهر. أما باقي الأوقات فغالباً ما كنت أقضيها بصحبتها نتحدّث، ونتنزّه في الحديقة، وأستمع إليها تراجع دروسها فيطفح قلبي بالفرح لفصاحة لسانها، وقوة حافظتها، وحبها للعلم. بعد تلك الرحلة عدنا إلى لبنان فلم نحتمل البقاء فيه أكثر من ثلاثة أشهر، انقضت في حالةٍ مستمرةٍ من الرعب، ومع ذلك أسهمت في أمسية أدبية أقيمت في قاعة «وست» بالجامعة الأميركية في ١٩٨٣/٣/١٥ احتفالاً بالذكرى المئوية لولادة جبران خليل جبران، وعكفت على كتابة فصول جديدة من سيرة ميّ زيادة التي أعدّها منذ بضع سنوات، وعلى وضع قصص قصيرة سأنشرها بعنوان «حزن الأشجار».

كنا نتناسى حالة الحرب، كسائر سكان بيروت، للاستمرار في العيش، وتقوية حوافز النشاط، ولكن انفجارات السيارات الملغومة على السفارات الغربية، ودور المسؤولين فاجأتنا من جديد، ولم ترحم أحداً، فانهارت عزيمتي، وتردّت صحتي. قاومت الرعب والمرض قدر المستطاع فأشار عليّ الأطباء بمغادرة لبنان، والاستشفاء بعيداً عن أجوائه المسمومة. ولما كانت طريق بيروت دمشق محفوفة بالأخطار، لاشتداد المعارك فيها، وفي سهل البقاع، اقترح إبني أن يرافقنا بسيارته إلى طرابلس لنتابع السفر منها إلى دمشق عن طريق حمص. أذكر أننا غادرنا بيته معه ومع زوجه وأولاده في الخامس من شهر أيار، ورجعنا إليه مسرعين، قبل وصولنا إلى المرفأ، بسبب سقوط قنابل عشوائية عليه، وعلى المنطقة الشرقية كلها. وفي اليوم التالي أُعلن عن وقف إطلاق النار، فانتهزنا الفرصة، وخاطرنا بالمرور ونجونا من الهلاك... على هذه الحال انقضت الأشهر الأولى من السنة فكنت أودّع إبني وأحفادي في بيروت، فيستقبلني أحفاد أخر من إبنتي الثانية في دمشق، ثم أفارقهم لألتقي بإبنتي الكبيرة وابنتيها، وهلّم جرا!.

كان اللقاء الثالث بأميرتي في الصيف إذ نسيت أن أذكر أنها أتت مع أمها إلى بيروت عندما سمعتا بمرضي. لم أكن راضيةً عن مجازفتهما بالسفر إليها ولكن وجودهما معي خلال أسبوع أنعشني صحياً ونفسياً. وعندما رجعنا إلى بيتنا في «طونون»، أتت الحبيبة للاصطياف في فرنسا مع والديها وأختها، فاستضفناها مدة ثلاثة أسابيع كانت أيامها مترعة بالأنس والبهجة، وكان سرورنا كبيراً لسببين: الأول كون أمها حاملاً، والثاني عزم أمها وأبيها على أصطحابها وأختها معهما إلى الولايات المتحدة الأميركية في شهر

أيلول، وقد شاء الحظ أن أُدعى إلى واشنطن في الشهر ذاته لحضور المهرجان الأدبي الذي أعدته «مكتبة الكونغرس» للإحتفال بالذكرى المئوية لولادة جبران خليل جبران، فسبقوني إلى واشنطن، واستقبلوني بالمطار يوم وصولي إليها في ١٩٨٣/٩/٢١، وحبيبتي متحمسةً، في فمها كلام كثير، أجلّت البوح به لحين استقرارنا في الفندق. لحظت أنها متعبة قليلاً، تمشي بتؤدة على غير عادتها، فسألتها عما بها، فقالت لي وهي ترتمي على المقعد في غرفتي مرهقةً، بعد تناول العشاء:

— مشيتُ يا تيتا نهار الأمس بطوله مع بابا، ندخل إلى متحف فنخرج منه لندخل إلى آخر، ثم أكلنا بسرعةٍ، وزرنا «الكينيدي سنتر» كلّه حتى المساء... لهذا تعبت كثيراً، وما زلت أشعر بألمٍ في رجليّ...

والتمعت الدموع في العينين الزرقاوين بعدما شكت إليّ تعبها. لقد هدّأت من روعها، وعمدت إلى تهيئة المغطس في الحمام ثم وضعتها بمائه الساخن مدة عشر دقائق فارتاحت وذهبت إلى غرفتها لتنام. أما أبوها فكان لا بد لي من لفت انتباهه إلى تعب الأطفال من الوقوف الطويل، والمشي البطيء في المتاحف، ولكن ظنه بأنها صارت صبية أنساه أن طاقتها على استيعاب ما أراد إطلاعها عليه من منجزاتٍ فنية وعلمية في يومٍ واحد ما زالت محدودة...

استعادت حبيبتي نشاطها الطبيعي في اليوم التالي، وحرّمت زيارة المتاحف في تلك الرحلة، إنما كانت تحلم بالزيارة الموعودة لمدينة «ديزني لاند» فاتفقنا على الاجتماع في «لوس أنجلوس»، بعد انتهاء المهرجان الأدبي، لنقوم بزيارتها سويةً.

وهنالك التقينا مجدداً، وقضينا يوماً سعيداً في مدينة الألعاب الشهيرة، فاستمتعنا، كباراً وصغاراً، بما فيها من فنونٍ وملاهٍ وألعاب مسليّة ومفيدة، تشحذ الخيال، وتثير الضحك في بعض الأقسام. كنا نخرج من جزءٍ لندخل في جزءٍ آخر، وننتقل بالقطار الداخلي لنتفرّج على ما فاتنا، ولقد أتاح لنا ذلك اليوم الجميل فرصة مشاهدة أشهر قصص الأطفال والأساطير العالمية تمثّلها الدمى الرائعة، على أنغام الموسيقى، فتمشي، وتتكلم، وترقص في أطرٍ فنيةٍ هي قمّة ما تناهى إليه الإبداع التقني في عصرنا، سواء في الإخراج، أو في التنوير والأزياء والبناء. وإني لأحزم بأن الناس الذين شاهدناهم من مختلف الأعمار قد استمتعوا بزيارتها استمتاع الأطفال، إن لم يكن أكثر منهم، لأنني نسيت حاضري وهمومي، ورجعت إلى عالم الطفولة يوماً بكامله بفضل عبقرية مؤسس تلك المدينة الساحرة: «والت ديزني».

أميرتي والأمومة

انقضى الصيف بسرعة، فودّعنا أميرتي التي توجّهت إلى الرياض مع أهلها لاقتراب موعد افتتاح المدارس، ففارقتنا دون أن يغرورق الدمع في عينيها كالسابق. كانت سعيدةً بزيارتها عندنا، سعيدةً برحلتنا معاً إلى أمريكا، وسعيدةً بدنوّ موعد ولادة أمها لأننا سنقضي شهراً في الرياض بضيافتها... أما أنا فقد انقبض صدري بعد سفرها، وازداد انقباضه بسبب تراكم الغيوم، وهبوط الضباب في المنطقة كلها. في تلك الآونة وصل لبنان إلى مفترق طرق، لا مفرّ من اجتيازه: فإما أن يتحقق وفاق وطني فيه يضع حداً نهائياً لحربه الطاحنة، وإما أن يستمر القتال فيه بلا هوادة، فيزداد عدد الضحايا، وتتفاقم الخسائر المادية والمعنوية، ويعمّ الخراب، لا سمح الله.

علمنا في آخر الصيف أن اتفاقاً هاماً تمّ بين الأقطاب اللبنانيين ورؤساء الأحزاب المتناحرة على عقد مؤتمر للمصالحة في مدينة «لوزان» بسويسرا، فوصلوا إليها في ١٩٨٣/١٠/٣١

وعقدوا اجتماعاتٍ مطولة سرّية، باءت كلها بالفشل. ولقد كان من نتائجها المباشرة نشوب قتالٍ في مدينة طرابلس، وفي العاصمة، وحدوث غاراتٍ جوية إسرائيلية على المخيمات الفلسطينية في الشمال وفي الجنوب.

أذكر جيداً أننا لم نطق البقاء في غابة «طونون» المنسيّة، وأننا حزمنا أمتعتنا، وعدنا إلى الشرق للاطمئنان على إبني وأهلينا، غير أننا لم نتمكّن من الرجوع إلى بيروت لاشتداد القتال فيها. بقينا في دمشق شهراً كاملاً، ثم دفعني شوقي لإبني وأسرته إلى المجازفة بالسفر إليها حيث قضيت معهم بضعة أيام، عدت بعدها إلى دمشق مطمئنةً عليهم، وقلقةً في الوقت ذاته.

كان لابد من سفري إلى الرياض في مستهل سنة ١٩٨٤ لحضور ولادة ابنتي، فولدت صبيّاً كان فرح أميرتي به كبيراً لأنها كانت تحلم بأخٍ لها، منذ زمنٍ بعيد. لقد أحبّته حباً جماً، وأمست تخاف عليه من النسيم، وكثيراً ما كنت استمتع برؤيتها وهي تحمله برفق في أيامه الأولى، ومشاعر أمومةٍ غريزية تنعكس في نظراتها إليه، واهتمامها به، وانشغال بالها عليه إذا ما بكى، أو نام نوماً طويلاً. أذكر أنني قلت لها يوماً، ونحن نتمشى في حديقة البيت:

ـــ ما دمتِ تحبين الأطفال إلى هذه الدرجة قولي لي: كم ولداً ستنجبين عندما تصبحين أماً في المستقبل؟.

أجابتني على الفور:

ـــ أنا أحب الأطفال كثيراً، ولكنني لا أريد أن أتزوّج حتى لا يكبر بطني مثل ماما، ويتغيّر شكلي، وأتعذّب بالولادة...

فأدركت أن موضوع الحمل والولادة يقلقها، ولا سيما بعد رؤية أمها في أشهر حملها الأخيرة. كانت تنظر إليها باستغراب، وتشفق على ما اعتراها من تعبٍ وثقلٍ في مشيها وقعودها ونهوضها، فرأيت أن من واجبي أن أحاول إزالة تخوّفها من هذه الحالات الطبيعية التي تعتري النساء في حياتهن، لكي لا تسيطر عليها الأوهام. أحضرت لها في اليوم التالي كتاباً مصوراً يصف توالد النباتات والحيوانات، والحمل والولادة، وهو من الكتب الحديثة في العلوم الطبيعية التي تُدرسّ في عصرنا. كان استيعابها للموضوع واضحاً، ونحن نتصفّح الكتاب معاً، ففهمت أن الولادة تتمّ بشكل طبيعي، عندما يكتمل تكوين الطفل، وأن وجود المستشفيات والأطباء أو الطبيبات المختصين بالتوليد يساعد الأم كثيراً، فيتمّ كل شيء بشكل معجزةٍ ترسّخ الإيمان بعظمة الله، ثم أضفت قائلة:

— لا تنسي يا حبيبتي أن الخالق ميّز المرأة بشرف الأمومة، وأن الأمومة سعادة كبرى في حياتها، ألا ترين بنفسك فرح أمك بكِ وبأختك عزّة وبأخيك الصغير «منار»؟

فأشرق وجهها بابتسامةٍ ساحرةٍ وقالت:

— إذن أتزوج عندما أكبر، وأصبح أماً لأربعة أولاد: ابنتين وصبيّين، وأسمّي ابنتي الأولى باسمك، والثانية باسم ماما، والصبيّ الأول باسم جدو، والثاني باسم بابا، ما رأيك؟

— لا بأس إذا كان هذا يسرّك، ولكن قولي لي ماذا تودّين أن تعملي بعد التخرج من الجامعة، هل ترغبين في أن تصبحي مهندسة مثل أبيك؟

فأجابت على الفور:

— مهندسة ؟ لا ! لأن بابا يتعب كثيراً في النهار ، ويسهر طويلاً في الليل مع الخرائط ...

فقلت لها :

— إذن اختاري دراسة الطب لتصبحي طبيبة أطفال مثل الدكتورة ناديا التي تحبينها كثيراً .

— لا يا تيتا ، أنا أحب الدكتورة ناديا ، ولكني لا أحب أن أرى الأطفال المرضى كل يوم وكل ساعة .

لم استغرب نفورها من حرفة الطب لعلمي بأن قلبها الرقيق ، وخوفها من المرض ، ومن رؤية نقطة دمٍ تسيل من جرح ينفّرها منها ، فقلت لها :

— إذن هيّئي نفسك واستعدّي لتصبحي معلمة يا ست عصمة !

فأجابت على الفور :

— يا ريت يا تيتا ! «بدلاً من يا ليت ...» أتمنى أن أصبح معلّمة مثل الآنسة ليلى معلّمة صفنا ، فهي لطيفة معنا ، وكل البنات يفهمن دروسها ويجتهدن لإرضائها .

على هذا القرار استتبّ الرأي ، فذهبت أميرتي إلى غرفتها لتراجع دروسها ، وسرحتُ بعيداً مع الأفكار : إذا أصبحت أميرتي معلمة ذات يومٍ ، فلسوف يتعشّقها تلاميذها ، وستتفوّق على زميلاتها لأنها تحب التدريس بالفطرة إذ كثيراً ما كانت تصفّ الدُّمى ، وتلقي عليها الدروس ، أو تتسلّى في تعليم أختها الرسم والتلوين والأُناشيد ، مقلّدةً بذلك معلمتها العزيزة ...

وكما كانت تقتدي بمعلمتها كانت حبيبتي تقتدي بأمها عندما تقترب من سرير أخيها الوليد فتغنّجه بكلامٍ عذبٍ ، وتناغمه بعباراتٍ ملائكية كلها سحر وتطريب . ومنذ أن قالت لها أمها :

ــ إنك يا عصومة بنيّتي الكبيرة ، وأنا أعتمد عليك في رعاية أخيك وفي مساعدتي بتعليمه كيف ينبغي أن يتصرّف عندما يكبر .

منذ ذلك اليوم شعرت حبيبتي بالزهوّ والاعتزاز ، ثم أثبتت لنا ، فيما بعد ، أن في قلبها نبعاً فياضاً من مشاعر الأمومة الرائعة في حنانها وسخائها ! .

النزوح النهائي عن بيروت

عدت إلى دمشق من الرياض مطمئنة البال ، يحدوني الأمل بلقاء أميرتي في الصيف المقبل ، عندما تنتهي السنة الدراسية ، وتأتي إلى « طونون » مع والديها وأختها وأخيها . لقد جرت أحداث في الأشهر الأولى من تلك السنة ببيروت ، لم نكن نتوقّعها إذ بلغنا أن الشقة التي نسكنها معرّضة للاحتلال ، وأن الجيران دعوا عائلة مهجرّة يعرفونها للإقامة فيها ، ريثما نعود إليها ... حاولنا الوصول إلى بيروت في شهر آذار ، فلم نفلح بسبب الاشتباكات الدمويّة الدائرة فيها وفي ضواحيها . ثم حاولنا مرةً ثانية عن طريق طرابلس فأقمنا أسبوعاً عند إبني وعائلته ، ثم عدنا إلى دمشق حيث كانت ابنتي الثانية حاملاً على وشك أن تضع ، وفي الخامس عشر من آذار استقبلت بدمشق حفيدي التاسع « طلال » .

بتنا نترقّب ونحن في دمشق أخبار القتال في لبنان ، علّ هدنة مؤقتة تسمح لنا بالوصول إلى بيروت الملتهبة ، وقد أقفلت المدارس فيها والمتاجر ، وفتحت مخازن الذخائر أبوابها ... طال

الانتظار ، ونحن على أحرّ من الجمر ، فعزمنا على المخاطرة بالسفر أسوةً بكثيرين من المضطرين للعودة مثلنا. غادرنا دمشق في اليوم الثاني من شهر نيسان وبلغنا مدخل بيروت عن طريق زحلة ضهور الشوير ، في ثلاث ساعات فقط ، ولكن قطع المسافة القصيرة التي تفصل بين بيروت الشرقية ، وبيروت الغربية ، بين المتحف ومستشفى « البربير » استغرقت ثلاث ساعات أخرى دون أية مبالغة ! كانت عشرات السيارات المتوجّهة إلى العاصمة يومذاك تقف طويلاً عند اشتداد هدير الرشاشات في المنطقة ، ومن ثم تسير ، خطوةً خطوةً ، عندما يهدأ ، بسبب اضطرارها للوقوف أمام مراكز التفتيش المتعدّدة التي نصبتها الأحزاب المتناحرة. وأخيراً وصلنا منهكين إلى البيت ، فوجدناه في حالةٍ من الإهمال والفوضى لا توصف ، مما دفعنا إلى النزوح النهائي عن بيروت ، وتسليم الشقة إلى مالكيها ، بعد أن حفظنا المكتبة ، وما سلم من أمتعتنا الشخصية في المستودع. استغرق هذا العمل عشرة أيام لم يتوقّف خلالها القصف العشوائي على الأحياء السكنية ، فودّعنا بيروت حيث لم يبق لنا فيها مأوى ، وقد جفّت الدموع في المحاجر ، وسالت في القلوب . .

قضينا الربيع في دمشق بالقرب من أهلينا الموجودين فيها ، ثم لجأنا إلى « طونون » في شهر حزيران للقاء أخوة لنا مقيمين في أوروبا ، ولاستقبال أولادنا الثلاثة الذين وعدوا بقضاء ردح من الصيف مع سائر الأحفاد عندنا. ومنذ وصولنا إليها ، وحتى مجيء حفيدي « ميمو » الذي أدخلناه في مدرسة صيفية ، حتى وصول أميرتي في أواخر شهر تموز ، وابني البكر مع زوجه وأولاده ، وأنا مريضة أُعالج ، ولا ينفعني علاج. كنت عاجزة عن تمويه

أوجاعي ، وعن الرضا عن الواقع الذي كنا نجابهه إذ تغيّر الزمان بفساد الأحوال ، وحلول النكبات ، فافترق الأهل والإخوان ، وأضحى كلّ واحدٍ منهم في مكان ، بانتظار جود الأقدار ... وكيف لا أعتلّ وأنا مقيمة في الغرب ، وفكري وقلبي مقيمان في الشرق ؟ كيف لا أمرض وأنا التي تعشق وطنها وأولادها وأحفادها ، قد حُرمت من العيش بقربهم؟ كان الحرمان من رؤيتهم كما أحب وأشتهي هو السبب في سقمي ، وإن ما يدعو للاستغراب ، في مثل تلك الأحوال ، هو صحتي ، لا مرضي .

عندما أتى أولادي وأحفادي واجتمعوا معاً عندنا لأول مرة نسيت ألم الغربة ، وبتّ أخاف من حلول يوم فراقهم مجدداً ، مما سرق النوم من عينيّ في كثير من الليالي . ولكنني كابرت وتجلّدت أمامهم قدر المستطاع ، لكي لا أعكّر عليهم وعلى نفسي تلك الفرصة السعيدة بوجودهم معنا .

إني لا آتي بجديد عندما أقول بأن الأيام الهانئة تنقضي بسرعةٍ مذهلة ، فقد انتصف شهر أيلول ، وغادرنا أولادنا والأحفاد ، فتردّت صحتي بعد سفرهم ، وكان لا بد لي من دخول المصحّ ، وإجراء عملية جراحية لم أُعلمهم بها في حينها . ثم أقبل الخريف البارد ، وأعقبه الشتاء ، فهطلت الثلوج ، وتفجّرت الينابيع من شدة الصقيع ، ونحن في الغابة وحدنا ، نتابع الأخبار ، نطالع في النهار ، ونسهر مع الموقدة فتسامرنا وتسلّينا ونتدفّأ بنارها . على هذه الحال استقبلنا سنة ١٩٨٥ ، ثم اتصل بنا أصدقاء لنا من بلدة « ماربيا » في جنوب إسبانيا ، يدعوننا بإصرار لزيارتهم ، فتوجهنا إليها طلباً للأنس وللدفء ... ذكّرتنا تلك المنطقة بلبنان وبحره ومناخه المعتدل في الشتاء ، فقضينا عشرة أيام فيها قبل الرجوع منها إلى

الوطن، وحجزنا شقةً كانت تُبنى على صخرةٍ مطلّةٍ على البحر والجبال للسكن فيها، بعد أن يتمّ بناؤها، عوضاً عن الإقامة في غابة «طونون» المنسيّة.

عندما شبّت حبيبتي

انقضت عشرة أشهر على غياب حبيبتي عني ، وذلك من شهر أيلول سنة ١٩٨٤ حتى شهر تموز سنة ١٩٨٥ ، فشبّت خلال هذه الفترة الطويلة ، وأضحت عندما التقينا صبية في مستهل عامها الثاني عشر ، تجذب القلوب بجمالها . لقد عدنا من دمشق إلى بيتنا في غابة « طونون » لقضاء آخر صيف فيه ، ريثما يتمّ بناء الشقة التي اخترناها في « ماربيا » . إن اللجوء إلى الأندلس ، والاغتراب عن الوطن في ربوعها أقلّ وطأةً على النفس والفكر من الاغتراب في فرنسا ، لما لنا فيها من آثار حضارة وعمران ، وامتداد جذور ، وأواصر قربى في الجنوب الإسباني .

يوم استقبلت حبيبتي في مطار « جنيف » ، وجدت أمامي حوريةً ساحرةً ، في عمر الورود ، ممشوقة القدّ ، طويلة الشعر ، رشيقة ، رقيقة ، كل ما فيها جميل ، حتى جَرْس صوتها الذي ينفذ إلى نياط القلب فيطربها . حقاً إن الصور الفوتوغرافية التي كانت ترد إليّ من الرياض لم تترجم صورة أميرتي الحقيقية . كان أول

ما قالته لي بعد السلام والعناق ، ونحن في طريقنا إلى « طونون » ، وأنا لا أرتوي من النظر إليها بفرح عارم ، وهي تشير إلى شعرها المنسدل بأناقةٍ على كتفيها :

— لن أقصّ شعري بعد اليوم أبداً يا تيتا ! الحمد لله أن ماما اقتنعت منك في السنة الماضية ، وسمحت لي بأن أطوّله !

فابتسمت وقلت لها :

— إنك على حق ، فالشعر زينة للفتاة وللمرأة ، ولن يرغمك أحد على قصّه بعد الآن .

وتذكّرت دموع أميرتي قبل عامٍ مضى ، وبكاءها بحرقةٍ يوم طلبت أمها من المزيّن أن يقصّ لها شعرها ، فترك العنان للمقصّ دون مراعاة لمشاعرها .

ولا بد من الإشارة إلى أن كل شيء في سلوك حفيدتي كان يدّل على أنها أضحت صبيةً ، ما عدا تلك الدموع السريعة التي كانت تبرق في العينين الماسيّتين ، وتنسكب على الخدّين بسخاء ، إذا ما شاهدت تمثيلية مؤثّرة ، أو سمعت تأنيباً من والديها ، ولا سيما إذا كان التأنيب لذنب لم تقترفه ، عندئذٍ كانت العبرات هي المعبّر الوحيد عن حزنها وثورتها على الظلم ، ولكنها سرعان ما كانت تمسحها ، وتدافع عن نفسها بعبارات احتجاج ، تنبعث من حنجرتها بلهجةٍ صادقةٍ ومؤثرةٍ للغاية .

إن معجزة ربيع العمر شبيهة بمعجزة الربيع في الطبيعة ، حين تتفتّح البراعم ، وتتنوّر الأزهار ، وتنضّر الأشجار ، وتتفجّر الينابيع ، ولقد قُيّض لي أن أنعم بمشاهدة غزو الربيع لشخصية أميرتي وأنا مسحورة ، كما أتأمّل لوحات الطبيعة المبهجة في كل

ربيع. أذكر أنني استغفلتها مرةً وهي واقفة أمام المرآة تنظر إلى نفسها بإعجاب، وقد امتشقت القامة، وكعب الثديان، وطال الساقان، مما زادها خفراً وتيهاً بالشباب. أصبح لها ذوق خاص في انتقاء الأجمل والأنسب من الثياب والألوان التي تتماشى مع لون بشرتها وعينيها، وتستسيغ سائر الألوان الهادئة ما عدا الأخضر. أما العطر فقد كانت تُسرّ عندما أرشّها بقليل منه، غير أن عطر أمها بقي المفضل عندها، وهل من عطرٍ في الكون يعادل عطر الأم ورائحتها، أو يفوقهما عذوبةً؟

أضحت حبيبتي ترافقنا أحياناً عندما نزور أختي في «جنيف» أو أصدقاءنا في «طونون»، وفي «إيفيان»، ولكنها كانت تؤثر صحبة رفيقة لها عربية كانت تصطاف في جوارنا، عندما تفرغ من متابعة دروسها الصيفية. كانتا تتجولان في الغابة على «الدّراجة»، أو تسبحان في بركة النادي الرياضي التابع لمنطقتنا، أو تمارسان رياضة «التنس» مع المدّرب، إذا ما سمح الطقس بذلك. ولا بد من الإشارة إلى أنها لم تكن تتغيّب مع صديقتها عن البيت إلا بالقدر المسموح لها به من الوقت، لأنها شبّت على احترام المواعيد والتقيّد بها.

صحبتها ذات يوم إلى سوق البلدة لشراء ما يلزمنا من حاجيات، وأذكر أننا جلسنا معاً في أحد المقاهي لاحتساء القهوة وتناول المرطبات قبل الرجوع إلى البيت، فقالت لي، وفي عينيها بريق حادّ:

— أريد يا تيتا أن أقول لك سرّاً فهل تعدينني بحفظه؟

فقلت:

ـــ دون شك يا حبيبتي، فنحن صديقتان، والصديق يحفظ سرّ صديقه، ولا يفشيه لأحد.

فقالت بكثير من الاضطراب والحياء:

ـــ يوجد صبيّ أجنبي في النادي يراقبنا أنا وصديقتي عندما نكون فيه، يطيل النظر إلينا فنتجاهله، ونبتعد عنه ونحن نتكلم العربية، ولكنه اقترب مني، وسألني عن إسمي وعن جنسيّتي، فلم أردّ عليه، بل رجعت مع رفيقتي إلى البيت حالاً.

سألتها:

ـــ وما عمره يا تيتا، وهل هو فرنسي؟

قالت:

ـــ أظن أنه أكبر مني بسنةٍ أو سنتين، وهو جميل، ومهذّب مع رفاقه عندما يلعبون معاً كرة الطاولة، ولا أدري ما إذا كان فرنسياً، فماذا أفعل؟

فقلت لنفسي وقد سحرتني براءة حبيبتي، وصراحتها: ينبغي أن يكون هذا الفتى صاحب ذوقٍ رفيع بانتقائها للتعرّف إليها عن كثب، فإن حُسنها يلفت أنظار الكبار والصغار في كل مكان. كما شعرت بسعادة فائقة لثقتها بي، ولاكتشاف تفتّح مشاعر الحب في قلبها، فما دامت مهتمةً به، وما دام يشغل بالها فإن في هذا الاهتمام وهذا الانشغال دليلان واضحان على انجذابها إليه أو بالأحرى على غبطتها بانجذابه إليها. ربّاه! ما أطهر الدفقة الأولى من الحب في قلوب الفتيات الصغيرات! لقد أثار هذا الفتى في قلب حبيبتي فيضاً من المشاعر العذبة النبيلة تجلّت لي في

بوحها، وتعابير وجهها، ونبرة صوتها، وأثارت مشاعرها فيّ وجداً دفيناً. وبعد هنيهةٍ قلت لها:

ـــ تسألينني عما ينبغي أن تفعلي إذا ما لقيته مرة أخرى؟ إني أنصحك بأن تكوني واثقةً من نفسك، طبيعيّةً في تصرّفك الهادىء، حسب عادتك، وأن تتحدثي معه إذا عرّفك بنفسه وكان مؤدّباً.

فتورّدت الوجنتان وقالت لي:

ـــ لا يا تيتا لن أفعل إلا إذا كنتِ معي فتعالي إلى النادي واسألي عنه، ثم احكُمي عليه بنفسك.

رافقتها إلى النادي في اليوم ذاته ودلّتني عليه من بعيد فرأيت فتىً وسيم الطلعة، ذكيّ النظرات، في نحو الثالثة عشرة من العمر، ولكنه لم يقترب من المائدة التي جلسنا عليها. لقد ظلّ واقفاً مع فتاتين شقراوين، وسيدة ذات هيبة وجمال، قدّرتُ أنها أمه، وبعد فترةٍ وجيزة غادروا النادي معاً، فسألت المشرف عليه عنهم، لأنه يعرف سائر المقيمين في الوحدة السكنية المجاورة له، بل وحتى ضيوفهم في الصيف، لكثرة تردّدهم على النادي فقال:

ـــ إن هذه العائلة ألمانية قضت أسبوعين هنا بضيافة مهندس الأبنية السيد «فرانك»، وقد أتت اليوم لتودّع الأصدقاء الذين تعرّفت إليهم من فرنسيين وألمان، لأن أم هؤلاء الأولاد الثلاثة فرنسية.

ولما كنا في طريق العودة إلى البيت قالت لي أميرتي:

ـــ الحمد لله أنه مسافر يا تيتا لأني لا أحب اللعب مع الفتيان

الأجانب، فهم ينظرون إلينا نحن العرب باستعلاء... فلماذا لا يحبوننا؟

فأجبتها:
ـــ لأنهم لا يعرفوننا كما نحن، ولكن من يتعرّف إلينا يكتشف مزايانا، ويدرك أننا لسنا جهلة، ولسنا إرهابيين، كما تُصوّرنا وسائل الإعلام في بلادهم...

ولا أخفي أنني أكبرت في حبيبتي اعتزازها بأصلها العربي، وشدّة تأذّيها من عنجهيّة الغربيين، ومن كل نقدٍ للعرب، وللبنان، يتناهى إلى مسمعها. لقد شبّت على حبّ وطنها ولغتها، وعلى الفخر ببلادها وأصلها، وهي مصرّةٌ على العيش في بيروت بالذات بعد انتهاء الحرب المشؤومة، ولا ترضى عنها بديلاً، مع أنها تصطاف في أوروبا، وتعجب بمظاهر التقدّم فيها، وبجمال طبيعتها.

في مساء ذلك اليوم مشيت وحدي على شاطىء البحيرة والأفكار تدور في خاطري، وتنقلني من موضوع إلى آخر، فتملّكني شعور بالاكتئاب أمام البحيرة الحالمة ساعة الزوال. لقد أوحى إليّ جمالها الهادىء، وانعكاس أشعّة الشمس وبعض الغيوم على سطحها، بعبارات العشاق، وتنهّدات المشرّدين، ودموع المغتربين الذين طافوا حولها عبر العصور، وما زالوا يطوفون، وهي صامتة أبداً، لا تفشي لأحدٍ سرّاً. ثم برزت في مخيّلتي صورة حبيبتي التي شبّت فقارنت بيني وبينها، فماذا رأيت؟ رأيت أنني شبيهة بفاكهةٍ مولّيةٍ على شجرة الحياة المتعبة، يشدّ من عزيمتها حبّ أوطانها المنكوبة، وحبّ أحفادها التسعة، ويشغل بالها

المستقبل القاتم الذي ينتظرهم، وينتظر أفواج الأجيال الصاعدة في العالم.

رسالة حبّ

رجعت إلى البيت في ذلك المساء وأنا أفكّر بأحفادي وأبناء جيلهم المقبلين على القرن الواحد والعشرين، المشحون بالتحديات والمفارقات. إنهم براعم ينعقد الزهر في أكمامها، غنيّة بالوعود، ولكننا لا ندري ما إذا كان سيُقيّض لها أن تنمو وتثمر، وأن تنعم بحياةٍ رغدة يسودها العدل والحرية، ويرفرف عليها السلم... إننا على أبواب هذا القرن، وأنا لا أدري إذا ما كنت سأدركه فالأعمار أقدار، بيد الله وحده، غير أنني عشت حضارة القرن العشرين في منجزاتها العظيمة، وسبقها العلمي المذهل، وبتّ أعتقد بأننا نعيش نهايتها، ونعاني من أخطارها ومشكلاتها. لقد فتح أبناؤنا وأحفادنا عيونهم ومداركهم على اكتشافات علمية، كالتلفزيون، والكومبيوتر، والأقمار الصناعية، فألِفوها وكأنها مكاسب طبيعية، وشاهدنا نحن هذا التطوّر السريع الذي قلب حياة البشر رأساً على عقب، فأثارنا التقدّم في العلوم، وأقلقنا ما نجم عنه من معضلاتٍ اجتماعية واقتصادية وعسكرية، وأخطارٍ تهدّد عالمنا بالفناء لتوفرّ الأسلحة الذرّية والنوويّة لدى الدول القوية المتحكّمة بمصائرنا...

أرقت في تلك الليلة عندما أويت إلى فراشي إذ كانت صور أحفادي وأبناء جيلهم تتراءى لي وكأنها أهلّة تنمو يوماً في إثر يوم، لتشعّ أنوارها على العالم الظامىء إلى النور. ليس مستغرباً أن أخاف عليهم مما ينتظرهم، سواء أكانوا مقيمين في أوطانهم، أو نازحين عنها، ومشرّدين في أنحاء المعمورة. إن الإرث الذي سيخلّفه القرن العشرين لعصرهم إرث مرهق، فيه الخير وفيه الشر: خيره في المكاسب العلمية والتقنية، والمنجزات الطبية التي انتفع بها الإنسان، والقضاء على الأمية وبعض الأوبئة، ورفع مستوى المعيشة، وتطوّر السياحة، والتخفيف من وفيات الأطفال، وتحرير المرأة في بلاد كثيرة، ولا سيما في البلاد المتقدمة صناعياً. أما شرّه فكامن في انتشار المخدّرات، وتفشّي الدعارة، ومرض «السيدا»، والبطالة، والتكالب على المال، والاستهتار بالقيم، وتفكّك الأسرة، ونبذ الأديان، أو الاتجار بها. إنها شرور وويلات أخذ عالمنا يشكو منها شكوى مرّة، ويبحث عن علاج لها لتفادي المزيد من أخطارها. كما أن بؤس البائسين، ولا سيما في العالم الثالث، قد تفاقم بتفاقم الجوع والظمأ والمرض، ولا من يهبّ للإنقاذ سوى جمعياتٍ إنسانية، وأفراد متطوعين، لم يفقدوا بعدُ المشاعر النبيلة. أما الدول القوية المسيطرة على عالمنا فما زالت تنادي بحقوق الإنسان، وتعقد المؤتمرات لحلّ المشكلات، وقد رأينا كيف أن قراراتها كلام جميل للتصدير والتخدير، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية... إنها تشعل حروباً في أركان المعمورة، لتشغيل مصانع أسلحتها، وزيادة رؤوس أموالها، وتكرّس سيادة شريعة الغاب! ولا ريب في أن غزو وسائل الإعلام المتطوّرة سائر أنحاء العالم في يومنا قد زاد في هموم الناس، لكثرة المآسي فيه، ولاستفحال المفارقات

بين أقويائه وضعفائه، فهنا مظاهر ترفٍ وتخمةٍ وتحكّمٍ فاضح بالمصائر البشرية، وهناك شقاء وحرمان، فكيف لا يشعر الشبان بالقلق والضياع؟ وكيف لا يثور المظلوم على الظالم في غمرة اختلال الموازين، وفقدان العدل والحرية، والقدوة الحسنة، والتعاطف الإنساني؟

إذا تبصرنا بواقع المرأة نرى أن متاعبها البيتية قد خفّت بفضل المخترعات الحديثة، وأنها تعبت أكثر من ذي قبل، بل أُرهقت حين غالت بالتحرّر في البلاد «المتقدّمة» حسب التعبير السائد: اقتحمت ميادين العمل على أنواعها، وأفرطت بتقليد الرجال، واهمةً أنها ندٌّ لهم ففقدت أجمل صفاتها: الأنوثة والخفر، وأهملت واجباتها الأساسية كأمٍ ومربية الأجيال. لقد نسيت رسالتها السامية، فلم تعد ربة الأسرة الجامعة للشمل، الحانية على الزوج والأبناء، ولا مداوية الجراح، ولا مورد الحب والعطاء. أنا لست ضدّ تعليم المرأة وتحريرها من قيد العبودية الذي أقصاها عن المشاركة في بناء مجتمع أفضل، ولكنني ضدّ الطفرة المجنونة التي أصابتها وأصابت الأمهات الشابات خاصةً، اللواتي يعملن في البيت وفي الوظيفة أو الحرفة. إنهن يحاربن على جبهتين، ولا يمكن أن يكون النجاح في إحداهما إلا على حساب الإخفاق في الأخرى، شئنا أو أبينا. إن الخاسر الأول في هذه الحال هو الإنسان: المرأة والرجل، والأولاد والمجتمع برمته، كما أن المنقذ الوحيد لكيان الأسرة من التفكّك والشقاء، وللشبيبة من العنف والضياع والانحراف، هو الحبّ وحده، والوعي الصحيح عند المرأة، وعند الرجل، لواجباتهما في الحياة.

خواطر وأفكار شغلت بالي، وحرمتني من النوم حتى ساعة

متأخرة في تلك الليلة، ولكن ما أراحني بعض الشيء هو يقيني بحتميّة حدوث ردّة فعل قوية في القرن الواحد والعشرين، بل ثورة على التهتّك والانحلال الخلقي، يسود العقل في إثرها، ويرتدّ الناس نحو الإيمان بالله، دون تعصّب للمذاهب والأديان، والإيمان بالقيم الثابتة، ثبات الحياة، وتطبيقها في سلوكهم.

صحوت في صبيحة اليوم التالي على نداء أميرتي تسأل عني. دخلت إلى غرفتي فوجدتني أقرأ ما كتبته في الليل، والقلم بيدي، فقالت لي بصوتها العذب:

— صباح الخير يا تيتا، إننا ننتظرك على الفطور، فقد تأخّرتِ بالنوم هذا النهار، ماذا تكتبين؟

فأجبتها بحماسة:

— أكتب رسالة حبٍّ إليك، ولأخوتك، وأولاد خالك، وأولاد خالتك، ورفاقكم...

فنظرت إليّ باستغراب وقالت:

— أنا لم أزل عندك، لم أسافر بعد... وما هي المناسبة؟

فابتسمتُ وقلتُ لها، وأنا أجمع أوراقي:

— إنها رسالة غير عاديّة يا حبيبتي، ولن تقرؤوها قبل عدة سنين...

ارتديت ملابسي بسرعة، ولحقت بها إلى غرفة الطعام. وعندما انفردت بنفسي مجدداً أضفت على ما كتبت هذه العبارات:

سيكون عصركم المقبل يا أحبائي الشباب مثيراً، زاخراً

بالأحداث والتحدّيات فإياكم أن تفقدوا الحماسة في حياتكم لأنّ الإنسان من دونها يفقد الهمّة، ولذّة العيش، ولا يتقدّم خطوةً إلى الأمام. عمّروا قلوبكم بالإيمان لأنه ينوّر عقولنا، ويهدي قلوبنا إلى دروب التقدم والخير. اعلموا أن الأديان جاءت لتوضّح علاقتنا بالكون والخالق والناس، لتنظّم حياتنا، ولتدعونا إلى التحلّي بمكارم الأخلاق. إن من يفهم جوهرها، ويجعله دستوراً لحياته لا يشقى لأنه يتلخّص في الدعوة إلى حسن التعامل مع ضمائرنا، ومع الآخرين. ولا تنسوا أن أخطر عدوٍّ للإنسان هو نفسه الأمّارة بالسوء، وأن من يحبّ نفسه، يسعى لإصلاحها، ويحبّ البشرية جمعاء، ومن يُحسن إليها قادر على الإحسان للناس.

أحفادي الغالون: لتكن حياتكم في القرن الواحد والعشرين رافلةً بالهناء، وأعمالكم مكلّلةً بالنصر. افتحوا قلوبكم للحبّ، هذا الشعاع السماويّ الذي هو أهمّ زادٍ في الوجود، وأفضل سلاح يحميكم من عاديات الزمان، فالحبّ فضيلة، يزوّدكم بالإيمان، ويغذّيكم بالتفاؤل، ويحثّكم على العطاء، وإياكم أن تصدقوا أن السعادة كامنة في الأخذ والاستئثار، لأنها كامنة دائماً وأبداً في العطاء.

أما الروح يا فلذات الأكباد فإنها نفحة إلهية خالدة، على عكس الأجساد الفانية، تنفصل عنها وقت الممات، ومهما تقدّمت العلوم، فلن تستطيع أن تكشف سرّ الأرواح، لذا أدعوكم إلى الاهتمام بتغذية أرواحكم اهتمامكم بتغذية أجسامكم، فكما تجوع أجسامنا وتتطلب الطعام، فإن أرواحنا تجوع وتتطلب الغذاء، وغذاؤها ينبع من الكلام الطيّب، والعمل الصالح، وإشاعة الوئام، ومن محبة الناس، وتقديس الصداقة، والاستمتاع بالجمال

والموسيقى، والعلم والفن والطبيعة. عندئذٍ تصفو سرائرنا ونشعر بالاطمئنان، وبفرح داخلي، قد نسمّيه الرضا عن النفس، وقد نسمّيه السعادة. واعلموا أخيراً أننا لم نُخلق عبثاً، إنما خُلقنا لنؤدّي رسالة نور في حياتنا، وأن الحياة لا تدوم على حال، كما أن المحن في رحلتنا العابرة إلى الأرض هي امتحان لقدرتنا على اجتيازها، فإما أن نتزوّد بالصبر والشجاعة فنغلبها، وإما أن نفقد قوانا وأعصابنا فتهزمنا، وتقضي علينا! إني واحدة من ملايين الآباء والأجداد القلقين عليكم وعلى مستقبلكم، ولكم أتمنى لو أكون نسراً يحملكم في الضلوع، وينقلكم فوق جناحيه بعيداً، بعيداً، ليحطّ بكم على أرض نظيفة، يعيش عليها أناس عقلاء، شرفاء، أوفياء، تقضون بينهم مسيرة حياتكم في رحاب سنة ألفين وما بعدها!.

الفهرس

أعمال المؤلفة

١ ــ يوميات هالة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٥٠ .

٢ ــ حرمان ــ قصص ــ دار المعارف بمصر ١٩٥٢ .

٣ ــ زوايا ــ قصص ــ دار المعارف بمصر ١٩٥٥ .

٤ ــ الوردة المنفردة ــ ديوان شعر بالفرنسية ــ بوينس آيرس ــ الأرجنتين ١٩٥٨ .

٥ ــ نساء متفوقات ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦١ .

٦ ــ عينان من إشبيلية ــ رواية ــ دار الكاتب العربي ــ بيروت ١٩٦٥ .

٧ ــ نفحات الأمس ــ ديوان شعر بالفرنسية ــ مقطوعات باريس الأدبية ١٩٦٦ .

٨ ــ الغريبة ــ قصص ــ مكتبة أطلس ــ دمشق ١٩٦٦ .

٩ ــ عنبر ورماد ــ سيرة ذاتية ــ دار بيروت للنشر ــ ١٩٧٠ .

١٠ ــ في ظلال الأندلس ــ محاضرات ــ مطابع ألف باء ــ دمشق ١٩٧١ .

١١ ــ البرتقال المرّ ــ رواية ــ دار النهار للنشر ــ بيروت ١٩٧٥ .
١٢ ــ الشعلة الزرقاء ــ رسائل جبران خليل جبران المخطوطة إلى مي زيادة ــ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ــ دمشق ١٩٧٩ .
١٣ ــ جورج صاند : حبّ ونبوغ ــ مؤسسة نوفل ــ بيروت ١٩٧٩ .
١٤ ــ ميّ زيادة وأعلام عصرها ــ مؤسسة نوفل ــ بيروت ١٩٨٢ .
١٥ ــ حزن الأشجار ــ قصص ــ مؤسسة نوفل ــ بيروت ١٩٨٦ .
١٦ ــ ميّ زيادة أو مأساة النبوغ ــ سيرة في جزأين ــ مؤسسة نوفل ــ ١٩٨٧ .

الحب بعد الخمسين / سلمى الحفار الكزبري . ــ ط ١ . ــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٩ . ــ ١٨٨ص ، ٢٠سم .

١ ــ ٩٢٠ : الحفار الكزبري ، سلمى ح ٢ ــ العنوان ٣ ــ الحفار الكزبري .

رقم الإيداع ــ ١٢٩٣ / ١٢ / ١٩٨٨

رقم الإصدار ٤٠١

الحبّ سيّدٌ مطلقٌ لا يعترف بالأعمار، ولا بالحدود، له قبل العشرين من العمر وبعدها خصائص ومزايا، تضفي على ألَقِ الشباب ألَقاً ساحراً، كما أن له بعد الخمسين من العمر آثاراً ومعاني تكاد تكون أعمق وأبقى لأنها تعيد للمحبّ نضرة شبابٍ ولّى، وتبعث فيه جمالاً ذوى، وتنعش روحاً قلّما تشيخ، متعطّشةً دائماً لنفحاته الزكيّة، وَرَوْحِهِ وريحانه! أولم يقل بدويّ الجبل:

أَتَسْأَلينَ عن الخَمْسينَ ما فَعَلَتْ؟
يَبْلى الشبابُ ولا تَبْلى سَجَاياهُ،
في القَلْبِ كَنْزُ شَبابٍ لا نَفَادَ لَهُ،
يُعْطي ويَزْدادُ ما ازدادت عطاياهُ
فما انطوى واحِدٌ من زَهْوِ صَبْوَتِهِ
إلّا تَفَجَّرَ أَلْفُ في حَنَايَاهُ!
يبقى الشبابُ نَدِيّاً في شَمَائِلِهِ
فَلَمْ يَشِبْ قَلْبُهُ إن شابَ فوداهُ!

من المقدمة



تصميم الغلاف: الفنان الياس زيات